الشك والظن واليقين في القرآن الكريم
(دراسة أسلوبية)

د. سحر فتحي حجازي
استاذ البلاغة والنقد المساعد بقسم اللغة العربية
كلية الآداب جامعة حلوان
saharhegazy91@gmail.com

الملخص:

ما تزال مادة (الظن) في الخطاب القرآني تعترض الفكر، وتلح على الخاطر، وتتطلب إعادة النظر في مبثوثها في السياق القرآني، إذ ثمة ما علق بها من قضايا شائكة لا يسبر أغوارها، ولا يحل عقدها، إلا فهم دقيق للنص، واكتشاف للعلاقات التي تربط بين أجزائه، وما يصدره هذا الفهم من توثيق حلقات التواصل بين النص ومتلقيه.

حيث تنهض من النص وحدات لغوية، تتحرر من قيم المعجم وثبات المدلول، إلا بالقدر الأصيل والدلالة المنغرسة في مادتها اللغوية، فتنفتح بها على النص تفجر إمكاناته الدلالية، وتكشف غوامض رسائله.

ولما كان المعجم العربي من ثوابت أدوات الباحث ومنطلق الدرس والتحليل، قر لدى كثير من العلماء والمفسرين ما أودعته كتب المعاجم بطونها فيما يتصل بمادة (الظن)، قال ابن فارس: "الظاء والنون أصيل صحيح يدل على معنيين مختلفين: يقين وشك"(1)، وفي لسان العرب: "(ظنن) المحكم: الظن شك ويقين إلا أنه ليس بيقين عيان، إنما هو يقين تدبر، فأما يقين العيان فلا يصح فيه إلا علم"(2).

وقد غدا هذا الارتباط الوثيق بين مواد: الشك والظن واليقين منطلق الدراسة التي تسعى لاستجلاء الدلالة المميزة لكل منها والتي بنى عليها النص القرآني، إذ العقل، والمنطق والذائقة البصرية والسمعية.. تأبى خلق علاقة تبادلية بين ألفاظ لكل واحد منها مدلوله الخاص وما يتداخل معه في مساحته الدلالية مما يقاربه من ألفاظ، وما يقابله منها.

فما تميز به الخطاب القرآني في مستويات عدة، كالمستوى الصوتي، والإيقاعي، والصرفي، والتركيبي، والبلاغي، والدلالي، ومستوى الاستعمال والتداول، أقطع باستحالة أن تحل كلمة فيه محل أخرى، وأدعى إلى نفي الرابطة بين هذه الدوال الثلاثة: الشك والظن واليقين، التي تحيلهم - أحيانا - إلى دلالة واحدة.

ولما كان مرتكز الدراسة اللغة في السياق، بحثًا عن المعاني الثواني، وقراءة لغوامض الدلالات اتخذت من الأسلوبية سبيلا للبحث في الإمكانات التعبيرية للظواهر اللغوية، بيأنا لخصائص اللغة التي يتحول الخطاب الإخباري بموجبها، إلى وظيفته التأثيرية، من خلال دراسة العلاقات الترابطية بين

(1) لسان العرب، ابن منظور، محمد بن مكرم بن منظور: 2762، تحقيق عبدالله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، طبعة دار المعارف.
(2) معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا :462/3 تحقيق وضبط عبدالسلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

الدوال، وما تفرزه من دلالات تنفي كلية الترادف أو التضاد، وذلك باعتبار الأسلوبية فرع من فروع اللسانيات الحديثة، فإنها تعنى بدراسة الأساليب أو الاختيارات اللغوية، لتبرز فاعلية المنهج الأسلوبي في دراسة الخطاب القرآني.

وتنقسم الدراسة إلى شقين: الشق النظري والشق التطبيقي، حيث يعنى الشق النظري، بالجانب المعجمي للمواد الثلاث موضع الدراسة من جانب، ويلقي بأضواء على علاقاتها بما تداخل معها من مواد من جانب آخر، ثم تنطلق الدراسة التطبيقية من مجموعة الأحكام والتفسيرات الصادرة حول النص، وتعيد تحليله أسلوبيًا، وفق منهج أسلوبي أدبي يعنى بجانبي الشكل والمضمون، سعيا لاكتشاف الوظائف الفنية للغة النص، حيث يتكامل الجانب الأدبي الجمالي والوصفي اللغوي اللساني في تحليل الخطاب، والكشف عن أبرز معالمه ومميزاته الفنية والجمالية.

الكلمات الدالة: الأسلوبية ـ الشك ـ الظن ـ اليقين ـ القرآن الكريم.

مدخل

سبقت هذه الدراسة بأخرى توقفت لدى مادة الظن في القرآن الكريم تطالعها من خلال السياق، بيد أنه عبر المراجعة ومداومة النظر وملاحقة ما يبطنه السياق وما ينتجه من دلالات بدت بعض خفايا النص التي ربما لا يجود بها عبر المطالعات الأول، حيث يمكن للتحليل الأسلوبي للآيات أن يبدد الكثير من التساؤلات التي أثيرت حول الوضعية المستغربة لحضور مادة الظن في النص القرآني محتملة لدلالتي اليقين والشك، وفق ما تقرر في المعاجم اللغوية وما حوته كتب الوجوه والنظائر، وما صدر عن مختلف كتب تفسير القرآن.

ولعل الوقوف بالظن عند تلك الحدود التي تتداخل عبرها مادته مع سواها من المواد كان العقبة الرئيس لتلك الدراسة، إذ إن شيوع تداول دلالتي الشك واليقين لاحقتان بمادة الظن والبناء على ذلك في تفسير النصوص القرآنية، مُوقع في الالتباس، مستلزم لدرجة بالغة من التدقيق حين تقرأ النصوص، حتى يمكن استخلاص الدلالات في ارتباطها بالسياق، لإحكام القبضة على المعانى المطروحة من جهة، والقطع بانفصام العلاقة الجامعة بين دلالات الشك والظن واليقين من جهة أخرى. بما يكرس لخطورة مواقع هذه المواد من السياق وانفرادها بالدلالات.

وقد اتخذت الدراسة من الأسلوبية متكئا تصدر عنه، تجلو من خلاله مخبوء الكلمات التي تبطن ما لا تظهر وتبدي على الأسطح دون ما تحجب.

الأسلوبية منهج يعنى بالإمكانات التعبيرية للظواهر اللغوية بدءا من الصوت حتى أبنية الجمل، حيث ينصب الاهتمام بالخصائص اللغوية التي يتحول عبرها الخطاب من سياقه الإعلامي إلى ما يبتغيه من التأثير، في غياب الانطباعات الذاتية في إثبات هذا التحول.

هي منهج، كونها مجموعة من الإجراءات التي تمارس بها جملة عمليات تحليلية تهدف إلى دراسة البنى اللسانية في النص وعلاقاتها، وصولا لتحديد الطابع الخاص للغة النص، وإبراز قيم الفن والجمال التي تستتر خلف تلك البنى .

حيث تبدو أهم سمات المنهج الأسلوبي في تحليل الخطاب متمثلة في استكشاف العلاقات اللغوية القائمة في النص، والظواهر المتميزة التي تشكل سماته الخاصة، والنظر في العلاقة بينها وبين منشيء النص، الذي يشكل مادته اللغوية باعتبارات نفسية وعقلية، تستدعي استخدام صيغ بعينها وتنحية غيرها مما يشكل عدة ظواهر أسلوبية لها مردودها الدلالي .

تتوقف المقاربة الأسلوبية في هذه الدراسة لدى عمليات الاختيار التي تنعكس من خلالها البنية والدلالة والمقصدية، وتستثمر مستويات التحليل المعجمي والصرفي والتركيبي.

والاختيار مبدأ لساني، أو هو محور تترتب وفقه المتتالية اللسانية، فهو مبدأ من مباديء الأسلوبية، يعنى بالاختيار الواعي للكلمات، يتجاوز حدود المفردة إلى التركيب.

ويرى تشومسكي أن العمل الأدبي يتولد عبر سلسلة من الاختيارات للكلمات داخل الجملة، وهو صاحب النحو التوليدي والذي يسمح بتوليد جملة من البدائل الأسلوبية والكلمات، حتى يتمكن الشاعر أو الكاتب من فرصته في العثور على خيارات واسعة ومختلفة في استعمال اللغة "(1).

ومن هنا تجسم الأسلوبية الملامح اللافتة التي يحتكم إليها المعنى الدلالي الناجم عن دقة الاختيار الأسلوبي، ووضع المفردات في مواضعها الأليق بها توخيا للمعنى المراد، حيث يستند المظهر الإبداعي للغة إلى انتقاء تراكيب مدارها تكثيف المحمولات الدلالية في نقطة تفرض هيمنة النص وتأثيره .

فالأسلوب هو آلية بناء النصوص، وهو جملة الاختيارات المناسبة التي يشكل بها النص، وهذا يقود إلى كون "الأسلوب ليس هو اللغة نفسها، بل هو ظاهرة ملازمة للغة أو أنه القدرة الإضافية الناتجة عن تأثير استعمال اللغة. فهو يستند إلى آلية اختيار مميزة " (2).

والاختيار الأسلوبي عنصر دائم الحضور يعيد هوية النص وملامح تشكيله فيما يجسده من تناسق يوظف القيم التعبيرية على وجه من التمايز الجمالي، ويشكل البحث عن الاختيار الأسلوبي تقصيا لوجوه التأثير والإثارة وتشخيصا لمناطق السلطة وفاعلية التجاوز المضمرة لفتنة النص "(3).

وبذلك يتبين أن عملية الاختيار هي مكون أساسي من مكونات عملية التشكيل الأسلوبي، وهي في جوهرها، اختيار شكل تعبيري واحد بين مجموعة بدائل متاحة، محكوم بعامل ذاتي يتمثل في معجم النص، وعامل موضوعي يشكله المقام .

(1) جمالية الأسلوب الخطابي في شعر أحمد مطر، حورية حسني :17، مذكرة تخرج في اللغة والأدب العربي، جامعة البويرة.
(2) نحو نظرية أسلوبية لسانية، ساندريرس فيلي :64-66، ترجمة خالد جمعة، دار الفكر، دمشق، ط1، 2003.
(3) الأسلوبية وطرق قراءة النص، عمر عبد الله العنبر، ومحمد حسن عواد: 428، بحث منشور بمجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، كلية الآداب، الجامعة الأردنية، مجلد 11، عدد 2، 2014.

ومن ثم فالأسلوبية محصلة مجموعة من الاختيارات المقصودة بين عناصر اللغة محكومة بالدلالة، تتخطى فيها الألفاظ مظاهر التوصيل لبلوغ المستوى الجمالي.

أما طبيعة الاختيار القرآني فتأتي بحسب السياق أو النظم لا بحسب مطلب شكلي مسبق، بل لعل أبرز سمات النص القرآني الأسلوبية أنه لم يتقيد بأفصح كلام العرب، ولا أكثره ذيوعا وشهرة، وإنما كان حرا حرية كاملة في اختياراته الأسلوبية، الأمر الذي حقق له التفرد المعنوي والشكلي على السواء، باعتبار " الأسلوب معان مرتبة قبل أن يكون ألفاظا منسقة "(1).

وارتكازا على أسلوبية الاختيار تعمل الدراسة على تفقد المفردات والصيغ والتراكيب في ارتباطها بالسياق القرآني، ذلك أن " معنى الكلمة هو مجمل السياقات التي يمكن أن تنتمي إليها "(2)، مضافا إليها الدلالة المركزية أو الأصلية، وفي هذا الإطار يمكننا كشف غوامض المعنى وحل إشكاليات الفهم، حيث يصف اللغويون المعنى المعجمي للكلمة بأنه متعدد "في حين يصفون المعنى السياقي لها بأنه واحد لا يحتمل غير معنى واحد "(3).

ويفهم من المعنى السياقي أن اللفظ ينكشف عن طريق السياق اللغوي، حيث يتوفر على قرائن تعين على تحديد المعنى، أو عن طريق سياق المقام، حين يرتبط السياق "بمقام معين يحدد المعنى في ضوء القرائن الحالية "(4).

ونعني بالسياق اللغوي ذلك السياق الذي يستند في تحديد المعنى إلى عناصر لغوية"(5)، يقول عبد القاهر الجرجاني " لا نظم في الكلم ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض، ويبنى بعضها على بعض وتجعل هذه بسبب من تلك "(6)، فالكلمات والدلالات ترتبط على نحو وثيق بالسياق وعلاقاته فهو الذي يعطي الإضاءة للغرض والقصد "(7)، السياق اللغوي هو حصيلة ما بات يعرف بمستويات الدرس اللغوي، حيث يتم الربط بين الوحدات اللغوية داخل منظومة السياق .

وبينما ينضح السياق اللغوي بجملة دلالات، تصور في الذهن بجدوى ترشيحه الدقيق للألفاظ، فإنه يضاف إليه دلالة الحال أو المقام، " وذلك لأن البنى اللغوية المتراصفة في السياق تتحول مساراتها في البناء التركيبي على وفق ما يتطلبه حال المخاطَب ومقامه، حيث إن أركان القاعدة التخاطبية لأي لغة منطوقة ترتكز على ثلاثة عناصر (المخاطِب والمخاطَب والخطاب)، وهذا الأخير يتحكم به المخاطِب على مستويات متوزعة على أساس المراتب المقامية للمخاطَب "(8) .

(1) الأسلوب، أحمد الشايب: 40، نشر مكتبة النهضة المصرية، ط12، 2003.
(2) بناء لغة الشعر، جون كوين :133، ترجمة وتعليق أحمد درويش، مكتبة الزهراء، القاهرة، 1985.
(3) منهج البحث اللغوي بين التراث وعلم اللغة الحديث، علي زوين :185، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 1986.
(4) اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان: 365، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط2، 1979.
(5) الصافي في تفسير كلام الله، المولى محسن الفيض الكاشاني ؛183/3، دار المرتضى للنشر والطباعة، مشهد، ط1، د.ت.
(6) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني :38، دار المدني، مصر، ط3، 2001.
(7) علم الدلالة العربي -النظرية والتطبيق -، فايز الداية :195، دار الفكر، دمشق، ط1، 1405/1985.
(8) جدلية السياق والدلالة، سيروان عبد الزهرة الجنابي، وحيدر جبار عيدان: 45، مركز دراسات الكوفة، العراق، 2008.

يقوم البحث بتحديد الأطر الفنية والأساليب اللغوية وتقدير درجات الثبوت والانحراف في استعمالاتها، تحقيقا لمقاصد الخطاب القرآني، انطلاقا من كونه نصا لغويا متفردا متكاملا، يفجر طاقات اللغة ويرفدها، يقصد بكلماته وعباراته إلى تجاوز مستوى التبليغ إلى التأثير والإقناع، إذ يهدف البحث إلى تحليل الخطاب والكشف عن أبرز معالمه، ومميزاته الفنية والجمالية.

حيث توزعت الدراسة ما بين الشق النظري، الذي عني في الأساس بالجانب المعجمي لمواد: الشك والظن واليقين، مضيفا إليه جملة ما تعكسه هذه المواد من دلالات داخل منظومة الخطاب القرآني، بينما عني الشق التطبيقي بمستويات التحليل الأسلوبي: المعجمي والصرفي والتركيبي - ولعل في إطالة الوقوف لدى هذه المستويات ما يبرر غياب المستوى الصوتي ضمن مستويات الدراسة - حيث يعنى البحث بفحص النصوص المختارة، وتمثل جوهرها، بتوظيف عدة ظواهر أسلوبية وفنية توظيفا جماليا مرتهنا بالنظر في مجالات التوظيف وما يتجلى عبر سياقات الآيات، بما تشكل فيما يأتي :

الدرس النظري: أولا الشك، ثانيا الظن، ثالثا اليقين.

الدرس التطبيقي: تنتظمه مجموعة منتخبة من آيات مواد: الشك والظن واليقين، تدرس من خلال أسلوبية الاختيار، وفق منهجية تبدأ باللفظ وتنتهي بالمعنى داخل السياق، وهي طريقة معتمدة في كشف دلالات النص والوقوف به عند درجة من الموضوعية التي تتجاوز الأحكام الذاتية المرتجلة، سعيا لاستطلاع طرق تشكيل النص بحثا عن خصائصه، حيث تنضوي تحت مظلة الاختيار العديد من ظواهر الأسلوب كالثنائيات الضدية، والمفارقة، والعدول، والتكرار، والحذف.. تبعا لما يتم رصده من ظواهر في سياق الآيات.

الدرس النظري:

بناء على خصوصية الألفاظ القرآنية وانطلاقا من فكرة نفي الترادف أو قبول الضدية في لغة النص القرآني نتوقف لدى كل مادة من مواد الدراسة، على النحو الآتي:

أولا: الشك

في المقاييس: "الشك" أصل واحد مشتق بعضه من بعض، وهو يدل على التداخل، من ذلك قولهم – شككته بالرمح، وذلك إذا طعنته فداخل السنان جسمه، ومن هذا الباب الشك الذي هو خلاف اليقين، إنما سمي بذلك لأن الشاك كأنه شك له الأمران في مشك واحد وهو لا يتبين واحدًا منهما، ومن ذلك اشتقاق الشك"(1).

وفي المفردات: الشك: اعتدال النقيضين عند الإنسان وتساويهما، وذلك قد يكون لوجود أمارتين متساويتين عند النقيضين، أو لعدم الأمارة فيهما والشك قد يكون في الشيء هل هو موجود أو غير موجود، وربما كان في جنسه من أي جنس هو، وربما كان في بعض صفاته، وربما كان في الغرض الذي من أجله أوجد، والشك ضرب من الجهل وهو أخفى منه: لأن الجهل قد يكون عدم العلم بالنقيضين

(1) معجم مقاييس اللغة: جذر شك.

رأسًا، فكل شك جهل، وليس كل جهل شكًا، واشتقاقه إما من شككت الشيء إذا خرقته، ويصح أن يكون مستعارًا من الشك وهو لصوق العضد بالجنب، وذلك أن يتلاصق النقيضان"(1).

فالشك كما يتضح هو "التردد بين النقيضين بلا ترجيح لأحدهما على الآخر عند الشاك، وقيل الشك ما استوى طرفاه"(2)، من حيث تردد القلب بين طرفيه المتضادين"(3).

وجعل للشك مترادفات، قال أبو الحسن بن عيسى الرماني في كتابه (الألفاظ المترادفة المتقاربة المعنى) "في فصل الشك": "لا ريب، ولا شك، ولا مرية، ولا خَدَجَ، ولا تجمجم، ولا شبهة"(4)، وفي (قاموس المترادفات والمتجانسات): "شك، ارتاب، اشتبه فيه) كلمات مترادفة، وكذلك (شك، ريب، شبهة) كلمات مترادفة"(5).

وذكر أحمد بن فارس حجة من يدفع بالترادف اللغوي. قولهم: "لو كان لكل لفظ معنى غير معنى الآخر، لما أمكن أن يعبر عن شيء بغير عبارته، وذلك أن نقول في (لا ريب فيه): (لا شك فيه)، فلو كان (الريب) غير (الشك) لكانت العبارة عن معنى الريب بالشك خطأ، فلما عبر عن هذا بهذا علم أن المعنى واحد"(6).

بينما فرق أبو هلال العسكري بين الشك والريب وجعل بينهما خلافًا فقال: "الفرق بين الشك والارتياب، أن الارتياب: شك مع تهمة، والشاهد إنك تقول: إني شاك اليوم في المطر، ولا يجوز أن تقول: إني مرتاب، وتقول: إني مرتاب بفلان، إذا شككت في أمره واتهمته"(7) .

قال الراغب في الريب: "أن تتوهم بالشيء أمرًا ما، فينكشف عما تتوهمه"(8)، وفي تفسير أبي السعود: "والريب في الأصل مصدر رابني، إذا حصل فيك الريبة، وحقيقتها قلق النفس واضطرابها، ثم استعمل في معنى الشك مطلقًا، أو مع تهمة، لأنه يقلق النفس ويزيل الطمأنينة"(9)، وجاء في (فرائد اللغة): "الشك هو تردد الذهن بين أمرين على حد سواء، قالوا: التردد بين الطرفين، إن كان على السواء فهو (الشك)، .. و(الريب): ما لم يبلغ درجة اليقين، وقيل: (الريب) شك مع تهمة"(10)، وفي مقاييس اللغة

(1) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني: شك، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 2008 .
(2) التعريفات، علي بن محمد بن علي الشريف الجرجاني: 168، تحقيق إبراهيم الإبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1405.
(3) دقائق الفروق اللغوية في البيان القرآني، محمد ياسر الدوري: 178، دار الكتب العلمية، بيروت، 1971.
(4) الألفاظ المترادفة المتقاربة المعنى، أبو الحسن علي بن عيسى الرماني: 86/85، تحقيق ودراسة فتح الله صالح علي المصري، المنصورة، دار الوفاء، مصر، ط1، 1988.
(5) قاموس المترادفات والمتجانسات، الأب رفائيل نخلة اليسوعي: 112، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، 1957.
(6) الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، أبو الحسن أحمد بن فارس: 98، تحقيق عمر فاروق الطباع، ط1، بيروت، مكتبة المعارف، 1414/ 1993.
(7) الفروق في اللغة، أبو هلال العسكري: 265، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الحديثة، ط 4، 1980/1400.
(8) المفردات في غريب القرآن: 205.
(9) تفسير أبي السعود، محمد بن محمد العمادي أبو السعود: 24/1، ط1، دار إحياء التراث العرب، بيروت، 1990/1411.
(10) فرائد اللغة، الأب هنريكوس لامتس اليسوعي: 147/1، بيروت، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، 1889.

" الريب في اللغة: شك يصاحبه كراهة"(1)، وقد حقق السياق القرآني هذه الجملة من الدلالات إلا مكانا واحدا في الطور (ريب المنون) ، والمراد به هنا مصيبة الموت، أو أحداث الدهر .

فالريب في النص القرآني يحقق كونه شكا مصحوبًا بالتهمة في إنزال الكتاب العزيز، وفي يوم القيامة والبعث..."إذ التهمة على هذه المغيبات حتى ينكشف أمرها، لذا كان أسلوب الخطاب في آيات الريب هو أسلوب ترقب وانتظار حتى يقع الأمر على حقيقته"(2).

أما الشك فهو وإن وقع في المغيبات وغيرها لكن لا على جهة التهمة لإرادة الانكشاف، وإنما لعدم اليقين الحاصل من الجهل، إذ الشك نقيض اليقين، وهو ضرب من الجهل، .. فالشك منوط بعدم إرادة الحقيقة وارتضاء الجهل"(3).

ووصف الشك بالريب في النص القرآني "لتخصيصه بالشك الذي تحتويه التهمة، مع قلق واضطراب"(4).

أما المرية في اللغة فتعني: "التردد في الأمر والشك والجدال فيه"(5)، "وهو أخص من الشك"(6)، "المرية شك يصاحبه عناد، كأن صاحبه يستخرج ما فيه من شبه يجادل بها"(7).

"ونخلص مما سبق إلى أن هذه الألفاظ: (ريب - شك - مرية) بينها تقارب دلالي، حيث تشترك جميعها في ملمح عام مشترك هو: انتفاء العلم. وتفترق كل منها بملمح دلالي: فالريب يتميز بالخوف والكراهة، وأنه يستعمل بمعنى آخر هو الحدث والنائبة. والشك: أعم هذه الألفاظ وهو استواء الطرفين أو الاحتمالية دون ترجيح لأحدهما. والمرية تتميز بملمح الجدال والعناد"(8).

ثانيا: الظن

الظن في اللغة "التردد الراجح بين طرفي الاعتقاد غير الجازم، والظنة: التهمة"(9)، وهو "تجويز أمرين في النفس لأحدهما ترجيح على الآخر، وقيل: الظن ميل النفس إلى أحد معتقدين متخالفين دون أن يكون ميلها بحجة أو برهان"(10).

وفي المقاييس: "الظاء والنون أصل صحيح يدل على معنيين مختلفين: يقين وشك، فأما اليقين فقول القائل: ظننت ظنًا، أي: أيقنت، والأصل الآخر: الشك، يقال: ظننت الشيء إذا لم يتيقنه، ومن ذلك الظنة: التهمة"(1).

(1) مقاييس اللغة، اللسان: (ر ي ب).
(2) دقائق الفروق اللغوية في البيان القرآني: 178- 179.
(3) نفس المرجع السابق: 179.
(4) نفس المرجع السابق: 179.
(5) مقاييس اللغة، مفردات الأصفهاني، اللسان: (م ر ى).
(6) مفردات الأصفهاني: (م ر ى).
(7) معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم، محمد محمد داود: 277، دار غريب، القاهرة، 2008.
(8) نفس المرجع السابق: 277
(9) تاج العروس من جواهر القاموس محمد بن محمد بن عبد الرازق المرتضى الزبيدي: 185/35، دار البيان، بنغازي، 1306.
(10) أحكام القرآن، ابو بكر بن العربي :156/4، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي، مصر، 1959.

يذكر ابن عطية أن "الظن قاعدته الشك مع ميل أحد معتقديه"(2)، قال الراغب: "اسم لما يحصل عن أمارة، ومتى قويت أدت إلى العلم، ومتى ضعفت جدًا لم يتجاوز حد التوهم"(3)، وقال ابن سيده: "الظن: شك ويقين، إلا أنه ليس بيقين عيان، إنما هو يقين تدبر، فأما يقين العيان فلا يقال فيه إلا علم"(4).

وقد فرق العسكري بين الشك والظن فقال: "الفرق بين الظن والشك أن الشك استواء طرفي التجويز، والظن رجحان أحد طرفي التجويز... ويجوز أن يقال: الظن: قوة المعنى في النفس من غير بلوغ حال الثقة الثابتة، وليس كذلك الشك الذي هو وقوف بين النقضين من غير تقوية أحدهما على الآخر"(5). وصفوة ما تقدم أن الشك تردد بين طرفين إن كانا على السواء، وإلا فالراجح ظن.

وثمة ما يتداخل في الدلالة مع الظن من ألفاظ بدت في كتب الأشباه والنظائر بمعناه ومنها: العلم، والرجحان، والاعتقاد، والحسبان، والوهم ؛ والكذب، إلى جانب اليقين والشك .

ففي قاموس القرآن: ظن على أربعة أوجه "العلم والاتقاء، الشك،الحسبان، التهمة "(6)، وفي نزهة الأعين النواظر: " الظن في الأصل: قوة أحد الشيئين على نقيضه في النفس، ذكر أهل التفسير أن الظن في القرآن على خمسة أوجه: إحداها: الشك .. والثاني: اليقين .. والثالث: التهمة .. والرابع: الحسبان .. والخامس: الكذب " (7)، قال الفيروز آبادي: " وقد ورد الظن في القرآن مجملا على أربعة أوجه: بمعنى اليقين، وبمعنى الشك، وبمعنى التهمة، وبمعنى الحسبان " (8).

وفي المفردات " الظن اسم لما يحصل عن أمارة ومتى قويت أدت إلى العلم ،و متى ضعفت لم يتجاوز حد التوهم، ومتى قوي أو تصور تصور القوي استعمل معه أنّ المشددة، وأنْ المخففة منها، ومتى ضعف استعمل أنّ وأنِ المختصة بالمعدومين من القول والفعل "(9). .

وبالنظر إلى نصوص القرآن الكريم يتوضح أن توجيه السياق أصل إلصاق الدلالات بمادة الظن، إذ غلب ورود الظن في رحاب سياقات الإعراض، ومقامات التولي والاثناء عن الدين، ووصف الظن نصًا بأنه لا يغني من الحق شيئًا، وكون مادة الظن في الاستعمال تدخل أحيانًا في بابي الشك والريب. مما يبدو ماثلا في مثل قوله تعالى: (وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ) [البقرة:78]، (يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ) [آل عمران:154 ،(إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ) [الأنعام: 116]، (وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا

(1) المقاييس، ظ ن ن.
(2) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي :1/ 138، دار ابن حزم، طبعة جديدة منقحة ومرتبة.
(3) المفردات: (ظ ن ن).
(4) لسان العرب: (ظ ن ن).
(5) الفروق في اللغة، أبو هلال العسكري :113.
(6) قاموس القرآن أو إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم،الحسين بن محمد الدامغاني :311، حققه ورتبه وأكمله وأصلحه عبد العزيز سيد الأهل، بيروت، ط1، 1427- 2007.
(7) نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي: 423 -425، دراسة وتحقيق محمد عبد الكريم كاظم الراضي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط3، 1407 - 1987.
(8) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي :545/3، تحقيق عبد العليم الطحاوي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1393 - 1973.
(9) المفردات، كتاب الظاء. وما ذكره الأصفهاني مبني على قاعدة غير مطردة، ولا قياسه كامل تام، لأن كثيرا من الآيات خلت من (أنّ) المشددة، و(أنْ) المخففة على السواء، ومن ثم فليس ثمة ضابط يعول عليه .

يَفْعَلُونَ) [يونس:36]، (وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ) [القصص:39، (وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ) [فصلت:22]، (وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ) [فصلت:23] ،(وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ) [الجاثية:24] ،(إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ) [الجاثية:32] ،(الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ) [الفتح:6] ،(وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا) [الفتح:12] ،(إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى) [النجم:23]، (وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا) [النجم:28] .

فالظن بالله تعالى، والظن في أمر الدين، والظن في أمر الساعة والبعث، علامات انتشرت في مساحات واسعة من النص القرآني أدت إلى ربط الظن بالعقيدة من باب السلب، وهو ما حدا بالعلماء إلى القول :" والظن في كثير من الأمور مذموم "(1)، ومن ثم وجه الظن إلى دلالة اليقين في مواقع وصف المؤمنين (الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) [البقرة:46] (قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ) [البقرة:249]، (إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ) [الحاقة:20] بحيث غيبت الدلالة اللغوية لمادة الظن، فلم ينظر إلى كونه منوطًا بعمليات الترجيح، التي تبنى على دواعي نفسية وعقلية، وفق أمارات أو دونها.

ولم تراع درجات الترجيح في مادة الظن إلا بالقدر الذي يتم توجيهه به في السياق والذي يصل أحيانًا لأن يكون قسيما للعلم، يقول الرازي: "والعلم والظن يشتركان في كون كل واحد منهما اعتقادًا راجحًا إلا أن العلم راجح مانع من النقيض والظن راجح غير مانع من النقيض"(2).

وما الظن للعلم بقسيم مهما ترقى في مضمار الترجيح، وإن اجتمع الظن والعلم تحت مظلة أفعال الهواجس والقلوب، يقول السيرافي في تلك الأفعال: "قول يقترن به اعتقاد ومذهب، وقد يصح وقد لا يصح"(3)، ويقول الرضي: إنها أفعال "تدخل على الجملة الاسمية لبيان ما هي عنه، أي لتعيين الاعتقاد.. ففي قولك: علمت زيدًا قائما، حكمك بالقيام الذي هو مضمون الخبر على المبتدأ الذي هو زيد، صادر عن علم، وفي ظننت زيدًا قائمًا: عن ظن"(4)، يقول المبرد: "والفصل بين علمت وظننت وبابهما وبين سائر الأفعال – أن علمت وبابها ليست أفعالاً واصلة منك إلى غيرك، وإنما هي إخبار بما هجس في نفسك من يقين أو شك"(5)، فالظن والعلم إذن يجتمعان ويختلفان، ليستقل كل منهما بدلالاته ووجوه استعماله .

في الظن ما يميزه بما يعلق بأصل مادته من دلالة الترجيح والتجويز لأحد طرفين، وفيها ما يستدعي دقة المعاينة لدرجة الترجيح، بيد أن من علامات القصور في النظر لتلك المادة أنه لم تقدر تلك المسافة الترجيحية الواقعة بين أقوى وأضعف بالقدر اللازم، حين قرئت النصوص، وهذه المسافة فاصل دقيق في نصوص القرآن لا يترقى فيه الظن بحال إلى العلم ومنه إلى اليقين، ولا يتدنى إلى حد الوهم والتصور،

(1) المفردات، الراغب الأصفهاني: كتاب الظاء.
(2) تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، محمد الرازي فخر الدين :53/3، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1981.
(3) شرح كتاب سيبويه، الحسن بن عبد الله بن المرزباني السيرافي أبو سعيد، 1/39-40، تحقيق أحمد حسن مهدلي وعلي سيد علي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1429 /2008.
(4) شرح الرضي على الكافية، محمد بن الحسن الرضي :4/149_150، تعليق يوسف حسن عمر، ط2، بنغاري، جامعة قاريونس، 1996.
(5) المقتضب، أبو العباس محمد بن يزيد المبرد :95/3، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة، طبعة الأوقاف المصرية، 1994/1415.

حيث طرحت مادة (الظن) في الخطاب القرآني في شتى مواقعه، دون أن تغادر دائرتها المحددة إلى سواها باعتبار تلك المسافة التي تفرضها فيها طبيعة الترجيح، حيث تحركت الكلمة في إطار دلالتها على الترجيح والنظر إلى المسافة بين أكثر وأقل بدرجة عالية من الخصوبة والحساسية منسجمة مع ما يفرزه السياق من دلالات، وما ينتجه من ألوان التأثير، فالترجيح في قوله تعالى: "إني ظننت أني ملاق حسابيه " (الحاقة :20) في أعلى درجاته، ودونه الماثل في قوله تعالى: " فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله " (البقرة :230)، بينما هو في أدنى درجات ضعفه في قوله تعالى: "و إن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا "(النساء :157).

ثالثا: اليقين

"اليقين في اللغة ": العلم الذي لا شك معه... وقيل: يقن الماء في الحوض إذا استقر فيه"(1)، فهو "زوال الشك وتحقيق الأمر بالعلم الحاصل بعد نظر واستدلال، فالموقن هو العالم بالشيء بعد حيرة الشك"(2)، وإلى تلك الدلالة ترجع كل صيغ اليقين، قال الخليل: "وقد أيقن يوقن إيقانًا فهو موقن، ويقن ييقن يقنا فهو يقن، وتيقنت بالأمر، واستيقنت به، كله واحد"(3).

بين اليقين والعلم حلقة اتصال إذ اليقين بسبب من العلم ؛ يؤسس عليه ويبنى، أما العلم فهو: تصور المعلومات على ما هي عليه لهذا يقال العلم ما قام عليه الدليل والعمل النافع، واليقين أخص من العلم بأمرين: إنه هو الذي يحمل صاحبه على الطمأنينة، والصبر على المكاره، والثاني: إنه العلم الراسخ القوي الذي ليس عرضة للريب والشك والموانع .

والقرآن يستودع نصه لفظي العلم واليقين، ويخص كلا منهما بدلالات يبدو منها أن اليقين يبنى على العلم، مقترن "بسكون الفهم مع ثبات الحكم"(4)، يقول ابن تيمية: "اليقين طمأنينة القلب واستقرار العلم والعمل فيه. والموقن من استقر في قلبه العلم والعمل"(5)، وقيل: "هو الاعتقاد الجازم المطابق الثابت الذي لا يزول بتشكيك المشكك"(6)، ومن ثم يبدو الموقن على درجة من الثبات من حيث البناء على العلم والعمل به، بيد أن العلم قد يعرض له ما يهز ثباته وليس ذلك في اليقين الذي هو نقيض الشك، قال أبو بكر طاهر: "العلم تعارضه الشكوك، واليقين لاشك فيه"(7).

وقد ورد العلم في النص القرآني في مواضع شتى، وفسر على اليقين، كما فسر على الظن الغالب، قال الشنقيطي عند تفسير قوله تعالى: "(وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ) [الأنفال:41] (وَاعْلَمُوا) معناه تيقنوا، لأن العلم إذا أطلق في القرآن معناه اليقين في جميع القرآن، وقد جاء في حرف في سورة الممتحنة إطلاق العلم مرادًا به الظن الغالب، وهو قوله تعالى: (إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ)[الممتحنة:10]، (عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ)، أي

(1) التعريفات :280.
(2) لسان العرب: ي ق ن، مقاييس اللغة: ي ق ن.
(3) معجم العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي :413/4، تحقيق عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003.
(4) الكليات، أبو البقاء الكفوي :980، تحقيق عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، ط 2، 1413/ 1993.
(5) تفسير الراغب، الراغب الأصفهاني :84/1، تحقيق محمد عبد العزيز بسيوني، كلية الآداب، جامعة طنطا، ط 1، 1420 / 1999.
(6) التعريفات :332.
(7) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي :127/1، باب علماء الآخرة وعلماء السوء، دار ابن حزَ م، ط1، 2005/1426.

غلب على ظنكم، ظنًا قويًا مزاحمًا لليقين، ولا يكاد العلم في غير هذا الموضع يطلق في القرآن إلا مرادًا به اليقين الجازم، الذي لا يخالجه ظن ولا وهم ولا شك"(1).

ومنشأ حمل اليقين على العلم، والعلم على اليقين، اعتبار اليقين أعلى درجات العلم، وليس ناشئًا عنه، قال الراغب: "اليقين أبلغ علم وأوكده (2)، وقال أبوهلال العسكري: "وحقيقة العالم هو من يصح منه فعل ما علمه متيقنًا إذا كان قادرًا عليه"(3).

في السياقات القرآنية أفاد العلم إدراك الشيء بحقيقته ودليله، لا لأن الشيء واضح بذاته، بل لأن العالم قد ميزه وأحاط به، وأدرك حقيقته بالدليل، وأما اليقين فهو أعلى درجات الإدراك، فاليقين " إتقان العلم بانتفاء الشك والشبهة عنه "(4) فالملمح المميز للعلم هو: حضور الدليل، ولا يسبقه جهل (إذ يختص الجهل بالمعرفة)، والملمح المميز لليقين هو: القطعية وثبوت الحكم وانتفاء الشك "(5).

فإذا تجاوزنا أمر التراسل بين العلم واليقين، بدا لنا لون تراسل تنتجه دلالة الضد بين الظن واليقين، إذ فسرت كثير من نصوص القرآن الكريم التي وردت فيها مادة (الظن) على دلالة اليقين، وهو ما تكشف عنه الصفحات الآتية، لا سيما وأن التحول بالدلالة من الظن إلى اليقين في التفسير القرآني طال كثيرًا من الآيات، بخلاف سائر الدلالات التي انسحبت على الظن، ومنها الشك.

الدرس التطبيقي:

نتناول بعض آيات من كتاب الله تعالى، وردت فيها المواد الثلاثة: الشك والظن واليقين التماسًا للفصل بينها، ولتخصيص كل مادة بما يتصل بأصل دلالتها، حيث يتم الفصل بين لمواد الثلاثة والتمييز بينها من جهة، والتركيز على تحليل النصوص من جهة أخرى من خلال التسليط على أبرز ظواهرها الأسلوبية، حيث تتوفر أسلوبية الاختيار على رصد عمليات الانتقاء التي احتوتها الآيات موضع الدرس، فتبرز جمالياتها في سياقاتها.

أولا: الشك:

وردت مادة (شك) في القرآن الكريم بصيغة المصدر المجرد من اللام المعرفة، "والمصدر هو أصل الكلمة الذي تصدر عنه الأفعال"(6)، قال ابن الحاجب: "المصدر: اسم الحدث الجاري على الفعل"(7)، فكل اسم دل على حدث وزمان مجهول وهو وفعله من لفظ واحد فهو مصدر.

فالمصدر يدل على الحدث دلالة مطلقة مجردة من الزمان، ومن التقيد بوصف، أو دلالة إضافية لدلالته على ما يؤدى به الحدث، وتكون دلالة المصدر على الحدث دلالة مطابقة بمعنى أن الحدث هو كل

(1) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير، محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي :12/5، تحقيق خالد عثمان السبت، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، ط2، 1426.
(2) تفسير الراغب :303/1.
(3) الفروق في اللغة، أبو هلال العسكري :73.
(4) الكشاف، الزمخشري :137/1، دار الفكر، بيروت، ط1، 1983.
(5) معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم: 344-346.
(6) معجم العين، مادة: ص د ر.
(7) شرح الرضي على الكافية: 399/3.

دلالة المصدر وليس جزءًا من معناه، وهو ما يميز المصدر عن سائر الصيغ، وفي استخدام صيغة المصدر (شك) مراعاة لقيمته الدلالية حيث تتساوق دلالة الثبوت والتوكيد والمبالغة مع حال الشاك.

أما خلو المصدر من التعريف فذلك ليفهم من التنكير ذات المعين فقط، ولا يفهم كونه معلومًا لدى المخاطب، لأن النكرة بمفردها تدل على الإطلاق، فالتنكير في (شك) مما يعني عمومه دون تخصيص أو تقييد، إضافة إلى المبالغة فيه، حيث يخلع السياق على المفردة دون ذلك ما يناسبها من دلالات.

وثمة ملحظ أسلوبي في السياق القرآني في اقتران مادة (شك) بحرف المعنى (في) إذ لم يرد إلا مسبوقًا بها، وذلك لما يفيد معنى الظرفية المجازية، ولإفادة معنى المصاحبة، فحرف الجر (في) في جريانه مع مادة (شك) يفيد معنى الظرفية والعمق والانغماس، أو للوعاء (حيث يبين هيئة الشخص أو الشيء المتحدث عنه. وكأنه منغمس داخل منخفض)، وعلى ذلك فقد أدت (في) دورًا في إيصال المعنى المراد، إذ تستعمل للإيذان بإغراقهم في الشك كما يوضع الشيء في الوعاء، يقول ابن القيم :"وهذا بخلاف الضلال والريب فإنه يؤتى بأداة (في) الدالة على انغماس صاحبه وانقماعه وتدسسه"(1)، ويقول ابن عاشور في قوله تعالى: (في شك) أن (في) فيها "للظرفية المجازية المستعملة في التمكن تشبيهًا لتمكن الصفة بتمكن الظرف من المظروف من جهة الإحاطة"(2).

وقد وردت لفظة (الشك) في البيان القرآني خطابًا لرسول الله صلى الله عليه وسلم في آية واحدة وهي قوله تعالى: (فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ) [يونس:94]، وما عدا هذه الآية فقد وردت في أربع عشرة آية بيانًا لأحوال الكافرين وشكهم الذي انصرف إلى ذات الله، والرسل ورسالاتهم، ووقوع اليوم الآخر وما يلزمه من البعث والحساب.

و الآيات جميعها من التنزيل المكي عدا الآية من سورة النساء من قوله تعالى: "وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا " (157)، فهي مدنية.

ويمكننا استلهام دلالة مادة (الشك) من خلال الوقوف لدى آية التنزيل التي وردت في شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم، نعقب ذلك بالوقوف لدى آية واحدة من الآيات المنزلة في شأن الكافرين، تم العدول فيها عن مادة الشك إلى مادة الريب، نتوقف عندها بالدرس الأسلوبي الذي ينعكس بواسطته مكنون السياق الدلالي، متمثلا في المعاني التي يجعل اللفظ ضمنها، وكيفية إحاطة البنية الكلامية بها، بسلوك طرق تعبير مغايرة تحقق مقصود الدلالة الكبرى، في إطار قضايا الطرح.

(1) خطاب رسول الله صلى الله عليه وسلم

يقول تعالى: (فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ) [يونس:94].

لفظة (شك) في الآية تعبر عن حالة نفسية، وتفرض تأزما شعوريا، وتأرجحا ذهنيا بين أمرين، دون أن يرجح أحدهما الآخر، وتستدعي عدم اليقين المتحصل عن الجهل .

(1) التفسير القيم، الإمام ابن القيم :19، تحقيق محمد حامد الفقي، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
(2) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور: 300/11، الدار التونسية للنشر، 1984.

وقد أفاض العلماء في تفسير الآية وتوجيه مادة (الشك) فيها، وذلك أن الآية صريحة في خطاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وفي توجيه لفظ (الشك) إليه (صلى الله عليه وسلم) .

قيل: " كنى هنا بالشك عن الضيق، أي: فإن كنت في ضيق من اختلافهم فيما أنزل إليك وتعنتهم عليك، وقيل: كنى بالشك عن العجب، أي: فإن كنت في تعجب من عناد فرعون، ومناسبة المجاز أن التعجب فيه تردد، كما أن الشك تردد بين أمرين، وقال الكسائي: معناه إن كنت في شك أن هذا عادتهم مع الأنبياء فسلهم كيف صبر موسى – عليه السلام – حين اختلفوا عليه، وقال الزمخشري: (فإن كنت في شك) بمعنى العرض والتمثيل، كأنه قيل: فإن وقع لك شك، وخيل لك الشيطان خيالاً منه تقديرًا، فاسأل الذين يقرؤون الكتاب"(1).

قال الشوكاني: (فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ) أي قل يا محمد للكافر فإن كنت في شك"(2)، قال الرازي "الخطاب مع النبي عليه الصلاة والسلام في الظاهر، والمراد غيره كقوله تعالى (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ) وكقوله (لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ) وكقوله (يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ) ومن الأمثلة المشهورة: إياك أعني واسمعي يا جارة"(3).

وفي روح المعاني: "أي في شك يسير"(4)، " وذلك أن محمدًا عليه الصلاة والسلام كان من البشر، وكان حصول الخواطر المشوشة والأفكار المضطربة في قلبه من الجائزات"(5).

ويرى الطاهر بن عاشور "أن الآية تحتمل معنيين لا يستقيم ما سواهما، أولهما أن تبقى الظرفية التي دلت عليها (في) على حقيقتها، ويكون الشك قد أطلق وأريد به أصحابه، أي فإن كنت في قوم أهل شك مما أنزلنا إليك، أي يشكون في وقوع هذه القصص... (فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ) فاسأل أهل الكتاب... فيزول الشك من نفوس أهل الشك إذ لا يحتمل تواطؤك مع أهل الكتاب على صفة واحدة لتلك الأخبار. فالمقصود إقامة الحجة على المشركين بشهادة أهل الكتاب من اليهود والنصارى قطعًا لمعذرتهم... وثانيًا أن تكون (في) للظرفية المجازية كالتي في قوله تعالى (فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاءِ) ويكون سوق هذه المحاورة إلى النبي (ρ) على طريقة التعريض لقصد أن يسمع ذلك المشركون فيكون استقرار حاصل المحاورة في نفوسهم أمكن مما لو ألقي إليهم مواجهة"(6).

يمكن استجلاء دلالة مادة الشك هنا في إطار اكتشاف مكنونات الخطاب، وإعادة بناء التصورات، ارتكازًا على مصادر الحجة، ومن خلال الملفوظات وما تنتجه من معطيات، حيث يتحول ما يفرزه الخطاب من دلالات للوهلة الأولى بالضد مما ينتجه، فتدرج مادة (شك) ضمن عملية انتقاء مجموعة العناصر المكونة للخطاب التأثيري الذي يهدف إلى الإقرار بصدق الرسول (صلى الله عليه وسلم)،

(1) تفسير البحر المحيط، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي :191/5، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1993/1413.
(2) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير، محمد بن علي بن محمد الشوكاني: 642، دار المعرفة، بيروت، ط4، 2007/1428.
(3) التفسير الكبير :167/17.
(4) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، أبو الفضل شهاب الدين الألوسي البغدادي: المجلد السادس 178/11، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1415 / 1994.
(5) التفسير الكبير: 17/ 168.
(6) التحرير والتنوير :11/284_285.

وصدق رسالته، ومن ثم وجود مرسل بالرسالة جل وعلا، وعلينا المرور أولا بجملة ما أحيطت به مادة الشك في الآية من الاحتياطات والآليات الأسلوبية لاستكناه جماليات الخطاب، بدءا بالتركيب الذي تتخلله الألفاظ.

ثنائية الشرط: تتنوع الأساليب في الخطاب القرآني بتنوع الموضوعات، وتتعدد بنى التركيب بتعدد طرق الخطاب، حيث يرفد الخطاب القرآني نصه من خلال التراكيب بمدلولات نفسية وعاطفية، ومن هذه الصيغ التركيبية بنية الشرط الثنائية، ولما كانت الثنائيات تعني التطابق بين سلوكين، ينتقي الخطاب القرآني جملة الشرط لتتجسد من خلالها المتناقضات، حيث تتميز جملة الشرط باتساع نطاق بنيتها التركيبية، فتؤدي دلالات إضافية، في حضور السياق " والدلالة المستقاة من التراكيب إنما مردها الربط بينها وبين المواقف المتنوعة التي تستعمل فيها المكونات اللغوية "(1).

ولتركيب الشرطي هو وحدة نحوية تنحل إلى طرفين ثانيهما يعلق بمقدمة يتضمنها الأول، وهو من أظهر الأساليب اللغوية انتشارا في العربية، " ومن أكفأ الأساليب وأقدرها على الربط بين البنى اللغوية، إذ أساس علاقة الشرط قائمة على معنى الاستلزام "(2)، وعلى الترابط بين دلالات البنى، ومن ثم بين الأشكال والمضامين في الخطابات اللغوية المختلفة.

و ثمة علاقة بين بنية التركيب الشرطي والسلوك في الخطاب القرآني، إذ إن الحقائق اللغوية بين التراكيب تتجاوب مع الموضوعات وتنساق إليها، وبما أن العلاقة بينهما قائمة على أساس الولوج إلى كوامن النفس البشرية واستجلاء ما تحمل في أطوائها من نوازع شتى، فهي في تباينها تنسبك في تراكيب تتواءم معها، الأمر الذي يسمح بإيجاد مفارقة تركيبية ودلالية على مستوى الخطاب، وطبيعة بناء هذا الخطاب، بغية الكشف عن البنى الدلالية العميقة الكامنة وراء هذا الخطاب "(3)، حيث تنحصر الوظيفة الدلالية لثنائية الشرط في المقابلة بين سلوكين، ضمن مفهوم السمات المتضادة أو المتناقضة .

فاليقين الذي يخلقه السؤال في قوله تعالى: (فاسأل) في جواب الشرط، يناقض الشك الذي يطرحه فعل الشرط (كنت في شك)، ليغدو التركيب الشرطي إطارا لثنائية تقابلية، حيث تؤدي أجزاء تلك البنية وظائف دلالية عديدة، بدءا بالأداة، ومرورا بالمفردات داخل التركيب.

إن الشرطية: (إن) وهي أداة الشرط التي تستخدم فيما يترجح أن يكون أو لا يكون، وهي للاستقبال" والأصل فيها الخلو عن الجزم لوقوع الشرط"(4)، فلا تستخدم (إن) الشرطية إلا لدلالة تعليق الجواب بالشرط، فقولك: (إن تأتني آتك) وجب الإتيان الثاني بالأول"(5).

ومن استعمالات أداة الشرط (إن) أنها تستعمل في المواضع المستحيلة، وذلك للدلالة على استحالة تحقق وقوع جواب الشرط، لاستحالة تحقق وقوع فعل الشرط، يذكر القرطبي أن " مجيء حرف (الفاء)

(1) Language and symbolic system, Blumenthal, A, S: 68, New York, 1972.
(2) نظام الربط والارتباط في تركيب الجملة العربية، مصطفى حميدة :202، لبنان، مكتبة لبنان.
(3) التركيب الشرطي (إذا) الدال على الثنائية التقابلية لسلوك المنافق في القرآن الكريم، نوزاد حسن خوشناو :2، بحث منشور بمجلة كلية الآداب، جامعة صلاح الدين، أربيل، العدد :95.
(4) مفتاح العلوم، أبو يعقوب السكاكي :240_241، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1987.
(5) المقتضب، المبرد: 138.

مع أداة الشرط، لا يعني وقوع الفعل أو عدم وقوعه... وأن أداة الشرط (إن) تستعمل غالبًا فيما لا تحقق له، حتى يستعمل في المستحيل عقلاً وعادة، كما في قوله تعالى: (قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ)(1).

فالقضية الشرطية مرهون جوابها بشرطها، ولا إشعار فيها بوقوع الشرط من عدمه، ولا بأن الجزاء وقع أو لم يقع، فليس فيها إلا بيان أن ماهية ذلك الشرط مستلزمة لماهية ذلك الجزاء.

"أي إن كان خامرك شك فاسأل، وإن كنت غير شاك فلا تسأل، فإنما يسأل الشاك أو الجاهل، أما العالم الموقن: فلا يسأل... فسياق جملة الشرط بهذه الكيفية نفي الشك عن رسول الله، وأمر للشاكين أن يسألوا(2)، فالحكم معلق بالشرط يعدمه عند عدمه، وقد ثبت أنه صلى الله عليه وسلم لم يشك ولم يسأل.

ومن ثم فالنص يحرك علاقة الاقتضاء ويسيرها في مجرى محدد، كون الشرط "تعليق شيء بشيء بحيث إذا وجد الأول وجد الثاني"(3).

صيغة الفعل (أنزلنا):"نزل من علو إلى سفل ينزل نزولا"(4)، و" النزول: الحلول"(5)، فالنزول انحدار شيء من علو إلى سفل، و" هو مختلف عن الهبوط: إذ النظر في الهبوط إلى جهة الاستقرار في محل وتحقيق إقامة بعقب النزول، بخلاف النزول فإن النظر فيه إلى ابتداء النزول"(6).

صيغة (أنزل) عدول نصي عن مادة (فعل) إلى مادة (أفعل)، حيث أدى الفعل بصغيته الصرفية إلى زيادة معناه بناء على زيادة مبناه، فأحدث تغييرًا في البنية النحوية والدلالية، يقول ابن السراج: "وحق هذه الهمزة إذا دخلت على فعل لا زيادة فيه أن تجعل الفاعل مفعولاً نحو قام وأقمته"(7)، وهي "تعمل على تعدية الفعل وتفيد معنى الجعل مثل أطردته، جعلته طريدًا، وأن تجعله صاحب الشيء مثل أقبرته جعلت له قبرًا، والدعاء مثل أسقيته دعوت له بالسقيا، والتعريض مثل أقتلته عرضته للقتل"(8).

خلقت صيغة (أفعل) في الآية دلالة جديدة نقلت بها تأثير الفاعل الجديد – وهو الله جل جلاله- إلى المفعول الجديد – وهي الرسالة – فثمة ما يودعه النص باستخدام صيغة أفعل من فاعلية في الحدث وتغيير للأدوار فيه من خلال تلك الصيغة اللغوية المؤثرة القادرة على حمل المعاني وإيصالها.

(1) الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي أبو عبد الله:11/52-53، دار الكتاب العربي، لبنان، 1952.
(2) مجموع الفتاوى، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام تقي الدين ابن تيمية :209/4، نشر وزارة الشؤون الإسلامية والدعوة والإرشاد، السعودية، 2004/1425.
(3) التعريفات، أبو الحسن الجرجاني :73.
(4) المصباح المنير، أحمد بن محمد بن علي الفيومي المقري: ن ز ل، مكتبة لبنان، 1987.
(5) لسان العرب: ن ز ل.
(6) التحقيق في كلمات القرآن الكريم، العلامة حسن المصطفوي: 12/95 _ 97، مركز نشر آثار العلامة المصطفوي، طهران، إيران، ط1، 1385.
(7) الأصول في النحو، أبو بكر محمد بن سهل بن السراج :39، تحقيق د. عبد الله الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة.
(8) الممتع في التصريف، ابن عصفور الإشبيلي 1/ 186_187، تحقيق فخر الدين قباوة، ط 4، دار الآفاق الجديدة، بيروت.

فهذه الزيادة التي عدت الفعل جعلته يتحول من فعل عام إلى فعل خاص، "فالفعل العام يدل على فاعل فقط، أما الفعل الخاص فيدل على فاعل ومفعول(1)، وإذ ذاك تتجلى خصوصية الإيضاح والبيان والدقة: "إذ كلما زادت عناصر المعنى ازدادت دقة المعنى"(2)، إضافة إلى فاعلية النقل والتصيير التي تجعل الإحداث في (أنزل) مختلفا، حيث وفرت الصيغة معلومة جديدة عن طريق إحداث النزول ولم تقف عند عمومية حدوثه، لأن الفعل المتعدي يميزه تعمد الإحداث، مما ينجم عنه نقلة معنوية واضحة بإيقاع الحدث عن قصد من الفاعل على المفعول ،فالصيغة (أنزل) تركيز على الحدث الصادر من فاعل محدد على مفعول محدد، ليعيد تحديد الأدوار ويوجه العنايةإلى كافة أطراف الحدث.

والفعل (أنزل) دل على الحدث والزمان والمكان، فهو دال بمعناه على الحدث، والفعل إلى الزمن أقرب، والأشخاص إلى المكان أقرب"(3)، فالفعل يدل على الزمن بصيغته ودلالته، ويدل على الأشخاص بفاعله ومفعوله، ويدل على مكان الأشخاص، حيث يفرض ارتباط الحدث بالمكان إطارا للحدث اللغوي، يعلو بدرجة التواصل مع الخطاب .

خصوصية الصيغة (أفعل) حيث انتقلت الدلالة استلزمت من المتلقي تواصلا أعلى مع الوحدات اللغوية لفهم الدلالات، وهذا التكيف التواصلي يجعل جملة الفعل المتعدي أكثر تأثيرًا.

وانطلاقًا مما سبق تصبح قدرة المتعدي على التصوير والوصف والتعالق أقوى، بفعل تعدد عناصره ومكوناته، ومن ثم فهو مؤهل بما لديه من طاقات لإقامة شبكة من العلاقات القبلية والبعدية، من خلاله أو من خلال أحد العناصر المتعلقة به، بما يوفر للسياق خاصية التماسك الدلالي، كما أن لدى الفعل المتعدي قدرة على فرض أساليب التصرف الفعلية والعقلية والنفسية من جهة المرسل بفعل وضوحه ودقته ومن ثم التأثير في المرسل إليه، لإحداث درجة من القبول والإذعان، حيث يتحقق القبول مع توجيه الفعل بصيغته للسياق نحو المعاني المرادة بتضاؤل الاحتمالات الدلالية وانحصارها.

على أن النص اعتمد صيغة (أفعل) دون صيغة (فعّل) أي (أنزل) دون (نزّل)، لأن الإنزال يلاحظ فيه صدور الفعل من الفاعل، أي منزل الكتاب، فالنظر فيه إلى جهة الصدور.

إذن ففي مادة الفعل الثلاثي المجرد (نزل) نظر إلى مبتدأ النزول من عند الله تعالى، وفي مادة (أنزل) ملاحظة صدور الفعل عن الفاعل وهو الله جلا وعلا، الذي ظهر في الفعل المتعدي مرتبطا بالإنزال مقدمًا عليه.

علاوة على ذلك، تؤدي نون الجمع في(أنزلنا) دورًا في اكتمال عناصر الإحاطة وترصد حضورًا طاغيًا للفاعل، وتحمل إشارة سافرة لذات الله تعالى حيث تدعم البنية الإحالية (ضمير المتكلم الجمعي الدال على ذات الله تعالى) فاعلية الحدث، وتسفر عن محدثه بجلاء بالإسناد إلى ضمير المتكلم الجمع الذي يرد في الخطاب القرآني لدلالات ينسبها الخالق لنفسه في صيغة مؤكدة تدفع شك المشككين والمتشككين.

(1) دور الرتبة في الظاهرة النحوية، المنزلة والموقع، عزام شريدة: 44، دار الفرقان، عمان، ط 1، 2004.
(2) الشكل والدلالة، دراسة نحوية للفظ والمعنى، السعيد حامد عبد السلام :227، دار غريب، القاهرة.
(3) الكتاب، سيبويه :37/1، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1982.

استخدام صيغة الجمع فيه دلالة على العظمة وعلو القدرة وبيان لتعدد الصفات، وتلك الصيغة وردت في المدونة القرآنية مصاحبة لأفعال تقتضي القوة والعلم والقدرة والحكمة، حيث تتكامل صفات الكامل، فالله تعالى يأتي بضمير الكبرياء مصاحبًا لبعض الأحداث ليلفتنا إلى تكامل صفات العلم والإرادة والقدرة.

في هذا الضمير الجمعي فنون العظمة والتفخيم لشأنه جل وعلا ومن ثم شأن رسالته ورسوله، أي نحن بعظمتنا وجلال شأننا أنزلنا هذا الذكر الذي يُشك فيه ويُنكر، ولا يخفى ما في (أنزلنا) من فخامة شأن المنزل (وهو القرآن الكريم)، والإشعار بعظمته، وعدم تعرضه للتحريف.

ولضمير المتكلم الجمعي مقتضى مهم حيث "يحدد نوع العلاقة القائمة بين المتكلم "هنا الله" ومتلقى كلامه بحيث تكون دلالة ذلك على التنبيه على علو منزلة الأول، وتواضع منزلة الثاني مما يدخل بوجه من الوجوه في باب المحاجة ويعد من وسائل الإقناع في بعض المقامات"(1)، قال أبو البقاء العكبري في علل البناء: النون من حروف الزيادة لشبهها بالواو... وتكون للواحد العظيم لأن الآمر إذا كان مطاعًا توبع على الفعل"(2).

وعلى ما في نون الجمع من دلالة تعظيم الذات الإلهية، والإثارة للهيبة، مما يحمل على القبول والتسليم، فإن فيها إلماحًا إلى دور جنود الله وملائكته الذين يعملون بأمره ما يشاء، حيث تضاف للنص قيمة تصوير الأحداث والمشاهد الغيبية التي تدق على المتلقي وتخفي عن ذهنه، فعن طريق تلك الصيغة عمل الخطاب على بعث مشهد الإنزال، بحيث يتدارك المتلقي بخياله ما عجز عن إدراكه بحواسه، باستحضار المشاهد، ومنح الحدث درجة من الحيوية والحركة، التي تولدت للوهلة الأولى بدلالة الفعل المعجمية، ومع إحياء الحدث يجري استيعاب مفرداته تمهيدا للتصديق عليه.

فإذا كان الماضي المجرد (نزّل) مما يمنح الحدث قيمة إخبارية توثيقية، فإن صيغة (أفعل) وضمير التكلم (نا) قد أضافا قيمة إيحائية تعبيرية لحدث الإنزال، حيث اعتمد النص على هذه العناصر مجتمعة في بلورة حدث الإنزال وتهيئته ليحتل مكانه في السياق بوصفه من أهم العلامات التي يسلط الضوء عليها لتحقيق المقاصد.

حرف الجر (إلى): قال سيبويه: "وأما (إلى) فمنتهى لابتداء الغاية، تقول: قمت إليه، فجعلته منتهاك من مكانك"(3)، قال المبرد: "وأما (إلى) فإنما هي للمنتهى"(4)،

قيد فعل الإنزال في الآية بحرف الجر (إلى) بما يفيد انتهاء الغاية المكانية، وفيه دلالة القصد والتوجيه والتخصيص وتحقيق الفائدة، فالفعل (أنزلنا) مسلط على رسول الله، وفيه معنى تسكين نفسه (صلى الله عليه وسلم)، حيث قيد الجار الفعل المطلق ووجهه إلى مسالك دقيقة المعنى، إذ أكثر لطائف النص القرآني مودعة في الروابط، وحروف الجر بما تنطوي عليه من دلالات هي أسرار عظيمة في توجيه المعاني، وإظهار جهات القول، وإيضاح دقائق النص، فهي تبني المشاهد وتحقق المعاينة وتهيئ منازل المحاجة للمنازل.

(1) الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، عبد الله صولة :108، دار الفارابي، بيروت، ط2، 2007.
(2) اللباب في علل البناء والإعراب، أبو البقاء العكبري: 443، تحقيق محمد عثمان، نشر مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 1430 / 2009.
(3) الكتاب، سيبويه :231/4.
(4) المقتضب :139/4.

فحرف الجر (إلى) هو بمثابة أداة لغوية تسهم في ربط القضايا من جهة، وتعمل على إيراد المعنى المراد والتأكيد عليه بالاستناد إلى وظيفتها، حيث يمكن اعتبار حروف المعاني حججًا كامنة داخل اللغة، فتعدية أنزل بإلى تحدث انحرافا في الدلالة بهدف التحول بالحدث إلى وجهة محددة وهي رسول الله عليه الصلاة والسلام، وتضمينه معنى الوصف، فالمنزل إليه غاية النزول.

الثنائيات الضدية: يرتكز نص سورة يونس على مجموعة من الثنائيات الضدية، تؤدي دورا مهما في كشف دلالات مادة (الشك) في الآية والوقوف على أبعاد الخطاب، حيث تحتل الثنائيات مساحات واسعة من النص وتتوغله بدرجة من الشمولية والعمق والتفصيل وذلك عبر مستويات: المفردات والتراكيب والمواقف والنماذج الإنسانية، حيثما يتم توظيفها لخدمة القضية المحورية، إذ التضاد " يستغل أكثر ما يستغل في السياقات الهادفة إلى تعرية الحقائق وكشفها، والإبانة عن حسنات ومساوئ، وذلك لبعد الهوة بين النقيضين "(1).

وتعد الثنائيات تعبيرا عن النفس البشرية، وصراعها في الحياة، وانعكاسا للمعنى والمعنى المقابل، تؤدي دورا في تفعيل النص، وإكسابه لونا من الحركة والحيوية، كما تؤدي دورا فاعلا في إنتاج الدلالات، وتثير المتلقي بما يؤدي إلى التأثير والإقناع، وعلى الصعيد الجمالي فهي تقدم الدهشة والمفاجأة، وتقوم بالربط بين المتناقضين وتفاعل بينهما وتناسب بين المعاني، على الرغم من الضدية التي تؤسس عليها الثنائيات بالتجاذب القائم بين قطبي الثنائية.

التضاد لا يعني مجرد التباين بين الشيء وضده، بل هو في صميمه أسلوب "يعبر عن حالات نفسية وموضوعية متقابلة في تداعياتها الضدية مما يوضح بعضه بعضا "(2)، ومن ثم فهو مكون أساسي لإنتاج بنية النص ودلالته، فالتضاد تركيب بنائي ينهض على قطبين متنافرين، على مستوى السطح، متضافرين على مستوى العمق لإنتاج الدلالة .. يتميز بحركة التفاعلات بين طرفي التضاد من جهة وسائر عناصر النص من جهة أخرى. وهو عنصر مهم وأساس في فاعلية النص، فهو مخالفة " والمخالفة تبدو فاعلية أساسية يتلقاها القاريء عبر كسر السياق والخروج عليه "(3)، وفي كسر السياق والخروج عليه دعوة إلى التأمل، يقول الزركشي :" اعلم أن في تقابل المعاني بابا عظيما يحتاج إلى فضل تأمل "(4).

فإذا كان النص مع الفعل (أنزل) قد اعتمد حركية السياق التي أنتجت ثنائية: أعلى/ أدنى، فإنه يدعم تلك الثنائية بحضور حرف الجر (إلى) بثنائية التخصيص: منا/ إليك.

حيث يعد استخدام ضمير الخطاب (الكاف) فيه (إليك) وثيق الصلة بمواجهة مباشرة بين قطبي العلاقة: المتكلم والمخاطب، وطبيعة هذا الضمير أن يأتي باستعماله وسطًا بين ضمير الغائب والمتكلم، فيتنازعه الغياب المجسد في صاحب الخطاب، والحضور الماثل في المخاطب، حيث يرتكز النص على الحضور المكثف لذات الله بما أودع من إشارات نصية في الفعل المتقدم (أنزلنا)، والتي تجعل صاحب

(1) لغة التضاد في شعر أمل دنقل، عاصم محمد أمين بني عامر :60، دار الصفاء، الأردن، ط1، 2005 .
(2) التقابل الجمالي في النص القرآني (دراسة جمالية فكرية وأسلوبية)، حسين جمعة: 163، منشورات دار النمير، دمشق، ط1، 2005.
(3) جماليات الأسلوب والتلقي، موسى ربابعة :184، دار جرير، عمان، الأردن، ط1، 2005.
(4) البرهان: 283/3.، ومن هذه الثنائيات ما هو لفظي وتركيبي وصرفي.

الخطاب في أعلى درجات الانكشاف، فيبرز طرفا الخطاب: المرسِل/المتلقي، صاحب الرسالة/ الرسول، المبتدأ /المنتهى، حيث يستحضر النص بثنائية: نحن (أنزلنا)/ أنت (إليك) ما يلح على إنتاجه، فهناك مرسِل ومُرَسل إليه ورسالة، وذلك عبر بنيته التركيبية ووظيفته التداولية باعتباره نصًا يحاول الإقناع بأمر محدد.

وعلى هذا الوجه أحيطت مادة الشك في السياق بألوان الدحض والانتفاء بما يحقق عدم وقوع الشك منه (صلى الله عليه وسلم)، فمن أداة الشرط (إن)، إلى صيغة الفعل (أنزلنا) إلى أداة الجر (إلى) إلى (كاف الخطاب)، بما يقطع بعدم شكه عليه السلام قطعًا بائنًا كليًا، وكيف يصدر عنه الشك وهو الموحى إليه الذي أنزل إليه الكتاب؟.

سورة يونس سورة مكية محورها العقيدة، تطرح بقوة كسائر السور المكية قضايا "حقيقة الألوهية"، وحقيقة العبودية، وحقيقة العلاقات بينهما، وتعريف الناس بربهم الحق الذي ينبغي أن يدينوا له ويعبدوه، ويتبعوا أمره وشرعه، وتنحية كل ما دخل على العقيدة الفطرية الصحيحة من غبش ودخل وانحراف والتواء، ورد الناس إلى إلاههم الحق الذي يستحق الدينونة لربوبيته"(1).

مقصودها "وصف الكتاب بأنه من عند الله لما اشتمل عليه من الحكمة، وأنه ليس إلا من عنده سبحانه لأن غيره لا يقدر على شيء منه، وذلك دال بلا ريب على أنه واحد في ملكه لا شريك له في شيء من أمره"(2).

ولما كان أقوى ما يستند عليه السياق في قبول الرسالة بيان أن القرآن من عنده سبحانه لا من عند غيره، وأنه ليس من عند رسول الله، توجه السياق إلى إثبات الألوهية من جهة وصدق الرسالة والرسول ودحض دعاوى الشك والتكذيب من جهة أخرى، في مواضع شتى من السورة، من مثل قوله تعالى: (وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ** أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) [يونس 37: 38].إنْ

ومن هنا انتشر في المحيط فعل الأمر (قل)، التكليفي الإلزامي، يعقد صلة وحوارا بين طرفين نصانيين، يفصح عن جهة الصدور وجهة التلقي، وبرزت ثنائية: التلقي/ التبليغ ترصد له (صلى الله عليه وسلم) دورًا محددًا، وسلوكا معينا تحدده أطروحات الخطاب، إذ يقضي على دعاوى نسبة القرآن إليه، عليه السلام، من دون الله، مما تجلوه الآيات:

(أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ) [يونس:2]

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ) [يونس15: 16]

(1) في ظلال القرآن، سيد قطب: 2026، دار الشروق، ط 32، 2003.
(2) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي :61/9، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

(وَيَقُولُونَ لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ) [يونس:20]

(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ) [يونس:47]

(قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ) [يونس:49]

حيث امتد النص بهذا الدور إلى نوح عليه السلام (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ) [يونس:71]، والرسل من بعد نوح (ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ) [يونس:74]، وموسى عليه السلام (ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ** فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ) [يونس75: 76]

وفي هذا السياق الممتد في سورة يونس، والذي بدت فيه محاولات الدفع بكون الرسالة حق في مقابل حملة التكذيب الشعواء من جهة الخصوم فيما أبرزته ثنائية التكرار لمادتي: كذب/ حق، وما في حقلهما الدلالي، والتي ترددت على مدار النص كله، وتخللته تلك السلسلة الممتدة التي اخترقت السياق بإلحاح، تجذر للرسالة ودعوة الإسلام، فيما ورد على لسان نوح (فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ) [يونس:72]، وعلى لسان موسي: (وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ) [يونس:84]، والانتهاء بها على لسان عدو الله فرعون (قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ) [يونس:90]، وما ركز عليه السياق من إظهار لعلامات ودلائل الوجود الرباني المسير للكون وما أودع فيه من الآيات.وسط هذا الخضم ظهرت الآية " فإن كنت في شك " في كسرِ ظاهري عنيف لما تتبناه الآيات، وتعتمد ما تقيم عليه الحجج وتدفع إلى التسليم به.

المفارقة: تؤدي الآية، في وجه من وجوه دلالتها، دورًا في السلسلة التي تبنتها السورة وهو دور بالغ الدقة، دقيق المسلك، قائم على المفارقة و" المفارقة صيغة من التعبير، تفترض من المخاطب ازدواجية الاستماع، بمعني أن المخاطب يدرك في التعبير المنطوق معنى عرفيا يكمن فيه من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإنه يدرك أن المنطوق - في هذا السياق بالذات - لا يصلح أن يؤخذ على قيمته السطحية "(1) .

ترتكز بنية المفارقة في الآية على المراوغة، التي تصدر أقوالا لا يتوقعها المتلقي، فتحدث لديه الدهشة التي تقوده في مرحلة تالية إلى الإعجاب، فثمة تناقض أو تعارض في مضمون الآية باعث على القلق، الذي يولد حالة من انفتاح الدلالات وتمددها، ويستدعي تفاعلا أعلى وتواصلا أقوى بين العناصر الثلاثة: الباث، الرسالة، المتلقي، حيث تعتمد المفارقة السياقية هنا على المراقب أو المتلقي في استنباط وكشف التعارض بين المعنى الظاهري والخفي، فما يبدو للوهلة الأولى أن ثمة شك لاحق برسول الله، وهو ما يتعارض مع كونه المخول بالدعوة، ولو كان الرسول شاكا في نبوة نفسه لكان شك غيره في نبوته أولى وهو ما يوجب سقوط الشريعة بالكلية .

(1) Dictionary of modern English, Flowler, H, W: 295, Usage, Oxford, 1926.

النص يعتمد على حدة المفاجأة التي يحدثها الانحراف في الآية، وهو بقدر عدم توقعه مما يتناسب مع مبتغى الخطاب الذي يعمق درجة استقبال المتلقي للدلالة المتولدة والمعاني المخبوءة خلف الكلمات، حيث تعتمد المفارقة لإثراء النص وتحريك ذهن المتلقي فيقف حيالها يستنبط كنهها، إذ يستوقفه من أول وهلة " تعبير ما يخيل إليه أنه خارج عن المألوف بدرجة كافية ليعده انحرافا "(1)، بينما يتم توظيف آلية الاستدلال الاستدارجي الذي يدفع بالخصم إلى التسليم حد الإجبار، بما تنتجه الملفوظات، مما يمكن من استلهام دلالة الآية.

فقوله تعالى: (فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ) وإن كانت معطيات نص السورة تنفي أن يكون الشك منه صلى الله عليه وسلم كائنًا، وألفاظ الآية ذاتها تدفع بعدم احتمالية ذلك، إلا أن الآية بهذا الطرح تحافظ على الفكرة قائمة غير مستبعدة ولاسيما من خلال البعد الاقتضائي الذي وفرته جملة الشرط (فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ)، فثمة تساؤلات تتردد بقوة لا سبيل إلى تنحيتها أو استبعادها ومنها: كيف يخاطب القرآن الرسول الذي أنزل إليه الكتاب خطاب شك ؟ وهل يشك محمد ؟ وكيف يشك فيما أنزل إليه ؟ ولكن .. حين تثار تلك الأسئلة فهي تستلزم جميعا حقيقة أن النص ليس من خلقه ولا هو واضعه، وبذلك يستدرج نص الآية الخصوم إلى المصادقة على قضية أولى، وهي الأخطر في بناء الدعوة – وهي أن القرآن ليس من وضع محمد، وهو على الأقل وضع بواسطة غيره، وهو ما يعيد النظر والبحث والتحقيق عمن يمكن أن يكون واضعه، ويحول مسار الشك في أمر القرآن وكون رسول الله واضعه، وتلك اللبنة الأولى التي يتحول بها الخطاب في الآية لتسليط الضوء على صاحب الدعوة ومرسل الرسول، والذي كرست الآية حضوره الطاغي عبر الفعل (أنزلنا)، على مستويات ثلاثة: مادة الفعل المعجمية، وصيغة أفعل، والعنصر الإحالي (نا)، وذلك عقب صدور مادة الشك ،بحيث لا يزيغ البصر ولا يتحير العقل ولا تطول حلقات البحث عمن صدر عنه القرآن، فيتوجه النظر مباشرة إلى صاحب النص الأعلى الذي هو وحده المخول بإصداره، فهو "الذات المحورية التي تدور حولها كل الذوات الأخرى الواردة في النص، وتوجهها كلها إلى تنفيذ الأفعال المنوطة بها "(2) .

ومن ثم يتحول مقتضى جملة الشرط فيغدو في دائرة بعيدة عن رسول الله بحيث يتوجه لكل شاك في أمر الرسول والرسالة، ويغدو إسقاطًا على المكذبين الشاكين، وهو ما يوفره السياق اللغوي في الانحراف عن صيغة المصدر (شك) إلى اسم الفاعل (المُمْتَرِينَ)، والتحول عن صيغة المفرد (كُنْتَ) إلى صيغة الجمع (المُمْتَرِينَ)، حيث يخرج نص الخطاب من دائرة الخصوص إلى العموم، ومن دائرة الشك إلى دائرة المماراة بما تنطوي عليه الكلمة من الدلالة اللاحقة رأسا بالكافرين وهي دلالة الجدل والعناد .

وهنا يمكن إدراك جمالية النص في تحويل قضية الرسالة إلى كل شاك، وإيجاد الحل المناسب لها (فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ) [يونس:94] وهو جواب الشرط باعتبار ما تفيده مادة السؤال من كونهم يجيبون بما يزيل الشك، فبذلك يلتئم التلازم بين الشرط والجواب"(3) فمقصود الخطاب طلب السؤال لإزالة شك بما يبين أن لدى أهل الكتاب ما يصدق ما جاء به محمد، فيما كذبه فيه الكافر.

إذ ذاك يمكن تفعيل بنية الشرط، التي ترسم ملامح معادلة رياضية تتأرجح بين فعل الشرط وجوابه، وإذا كان فعل الشرط (كنت - في شك) يمثل الجانب السلبي المعتم من ثنائية طرفاها الشك واليقين، فإن

(1) اللغة والإبداع مبادئ علم الأسلوب، شكري محمد عياد :82، ط1، 1988.
(2) دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة، سعيد حسن بحيري: 118، مكتبة الآداب، القاهرة، 2005.
(3) التحرير والتنوير :285/11.

الشق الإيجابي لا يلبث أن يتبعه ويلتصق به متمثلا في الأمر بالسؤال(فاسأل)، لتبدو الرؤية منفتحة على آفاق من السكينة والاطمئنان، والخروج من ثنايا القلق والتوجس إلى برد اليقين، حيث تم توظيف النمط الشرطي الجازم المتضمن في أداة الشرط (إن) وهو ما يعكس حالة القوة الشرطية التي تؤكد قيمة السؤال (فاسأل)، ودوره في إزاحة حالة التخبط والارتباك والحيرة .

يتماهى هذا التوجيه للآية مع الآية اللاحقة من الآيات التالية من سورة يونس (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي) [يونس:104]، فبين أن المذكور أو لنقل من خرج إليه الخطاب "في الآية الأولى، على سبيل الرمز هم المذكورين في هذه الآية على سبيل التصريح"(1).

(قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) [يونس:104] .

تضمر الآية الفاعل تعظيما له صلى الله عليه وسلم، وتخرج النداء عاما مباشرا "يا أيها الناس" فتنحو بقضية الشك إلى إطارها المنوطة به بصورة مباشرة، فتخاطب عامة الناس أجمعين إلى يوم الدين.

وعلى صعيد ما توافي به الآية من المعاني، وما ترسخه من قيم إخلاص العبودية لله، وثبات العقيدة، وصدق الإيمان في نفس رسول الله، تختزل بنية الشرط المعاني وتكثفها بمجموعة محذوفات، والحذف "باب دقيق المسلك لطيف المأخذ عجيب الأمر شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر والصمت عن الإفادة أزيد من الإفادة وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق وأتم بيانا إذا لم تبن "(2).

وهو ظاهرة أسلوبية تعلو بمستوى النص بما يزخر به من شحنات دلالية، تسهم في توسيع مجالاته من خلال تفاعل البنية السطحية التي ينطق بها ظاهر اللفظ، والبنية العميقة بوصفها عملية ذهنية يتوفر عليها المتلقي معتمدا على فطنته وذكائه، فهو تكنيك أو حيلة من الحيل التي تبرز أحوال النفس"، كما تكرس فائدة جمالية بإشراك المتلقي في تقدير المحذوف ليغدو دوره فاعلا، كامنا في البحث عن تخريجات وتأويلات لمثل هذه المحذوفات"(3).

وقد دل ظاهر الآية الوجيز على المحذوف، بينما تم توظيف الحذف ليؤدي دوره في اختصار مسافات جلاء عبوديته صلى الله عليه وسلم وخضوعه لله، فالنص بهذا الحذف يثبت له، عليه السلام، معنى الامتثال والانصياع المجلل بيقين الإيمان، وهو ما لم يكن ليتأتى مع الإسهاب، فيما يمكن إدراكه مع إعادة البناء إلى طبيعته غير المختزلة على الوجه الآتي:

إن كنتم في شك من ديني /فأنتم لا تعبدون الله.

إن كنتم في شك من الله / فليس هو بأهل أن يشك فيه.

إن كنتم في شك من ديني / فإنما يشك في دينكم ويرفض.

(1) التفسير الكبير :167/15.
(2) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني :162 .
(3) جماليات الأسلوب والتلقي، موسى الربابعة :99، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية والنشر والتوزيع، الأردن، 2000.

بهذه الاعتبارات وباعتبار العلامات النصية: دِينِي/ فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ/ وَلَكِنْ/ أَعْبُدُ اللَّهَ/ أمرت أن أكون من الْمُؤْمِنِينَ، وباعتبار جملة الشرط، ينعكس بعد اليقين لديه صلى الله عليه وسلم، فما ساوره لون شك قط ولا التبس به.

(2) خطاب المشركين

الآية من سورة البقرة من قوله تعالى: (وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ) [البقرة:23]، وإن كانت من الوضوح في الدلالة إلا أن فيها من لطائف النص القرآني ما يستوقفنا بالموازنة بين ما تنتجه من معطيات دلالية، وما تشكلت فيه من اللفظ وصيغ الخطاب، حيث تتبادل الألفاظ الأدوار بتغاير المخاطب وطبيعة الخطاب، ضمن الإطار الشرطي، فيما ترصده المعطيات النصية التي تتجلى في:

إن الشرطية: قال بعض العلماء أن (إن) هنا بمعنى (إذا) لمعنى إفادة التحقق، ففي البحر المحيط: "ادعى بعض المفسرين أن (إن) هنا معناها إذا، لأن إذا تفيد معنى ما أضيفت إليه... وتأولوا ما ظاهره ما ذهب إليه المبرد إما على إضمار يكن بعد إن... أي إن يكن كان...، أو على أن المراد به التبين: أي إن يتبين كون.... قال بعض المفسرين في قوله :(إن كنتم في ريب) جرى كلام الله فيه على التحقيق مثال قول الرجل لعبده" إن كنت عبدي فأطعني" فرارًا من جعل ما بعد إن مستقبل المعنى"(1).

إذن فقد عدل النص عن (إذا) الشرطية إلى (إن)، التي" استخدمت هنا والفعل محقق الوقوع، والبصريون يمنعون ذلك، وهو التحقيق، كالمعنى مع إذا لأنه من باب خطاب التهييج الذي هو أنسب شيء بالموقف " (2).

ويبدو أن ورود (إن) هنا بالفعل لون استخفاف وافتراض حدوث لسبق الآية بجملة من الدلائل والعلامات القاطعة بوحدانية الخالق: (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) [البقرة:22].

وفي هذا التحول في السياق من أسلوب النهي، وصيغة الفعل المضارع (فَلا تَجْعَلُوا) إلى أسلوب التقرير والصيغة الاسمية (وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)، لون استدلال شبه منطقي بدأ بالنتيجة وتخلص إلى المقدمة على النحو الآتي: (أنتَم تعلمون) (مقدمة) / (فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا) (نتيجة).

فثمة علاقة اقتضاء سببية تستفرغ من السياق، وهذه العلاقة السببية بقدر منطقيتها فهي أقدر على التأثير في المتلقى، ومبنى التعليل يكون على العلم بالمعلل، فالعلة تختص بالدلالة على ما يتوقف عليه وجود شيء بالوجه الذي وجد به، فغاية التعليل تفسير الشيء"(3)، وهذا اللون الأسلوبي هو ضرب مخصوص من العلاقات التتابعية إذ يحرص المتكلم على ربط الأفكار والوصل بين أجزاء الكلام دون الاكتفاء بتلاحقها وحسب... بل يعمد إلى مستوى أعمق من العلاقة فيجعل بعض الأحداث أسبابا لأحداث

(1) االبحر المحيط :243/1_244.
(2) البرهان في علوم القرآن، الزركشي :6/4، دار الفكر، بيروت، ط1، 1988.
(3) اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، طه عبد الرحمن :134، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 1998.

أخرى، ويسم فعلا ما بأنه نتيجة متوقعة لفعل سابق، ويجعل موقفًا معينًا سببًا مباشرًا لموقف لاحق... فإذا بالعلاقة السببية علاقة شبه منطقية"(1).

انطلاق الآية تأسيسًا على تلك النتيجة شبه المنطقية، هو ما بني عليه السياق، بحيث جعل من لا يذعن للإيمان بالخالق بمثابة من لا يستجيب لدواعي العقل والمنطق، ومن ثم صدرت الآية بأداة الشرط (إن)، توبيخًا لهم على خضوعهم للون من الريب، حيث "المراد بالعلم في قوله (وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) العقل التام وهو رجحان الرأي المقابل عندهم بالجهل"(2)، فأتى "بإن في تعليق هذا الشرط وهو كونهم في ريب وقد علم في فن المعاني اختصاص إن بمقام عدم الجزم بوقوع الشرط، لأن مدلول هذا الشرط قد حف به من الدلائل ما شأنه أن يقلع الشرط من أصله بحيث يكون وقوعه مفروضًا فيكون الإتيان بإن مع تحقق المخاطب علم المتكلم بتحقق الشرط توبيخًا على تحقق ذلك الشرط، كأن ريبهم في القرآن مستضعف الوقوع"(3) .

والآية كما بدأت بإن الشرطية ختمت بها (إن كنتم صادقين)، وما بين أداتي الشرط (إن) وقع قوله تعالى: (فأتوا بسورة من مثله)، حيث جعلت جملة الشرط " كنتم في ريب" في حكم الوهم الذي يتوهمه المعترضون على صدق رسالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، أما في المرة الثانية فتجعل (إن) جملة الشرط بعدها وهي "كنتم صادقين" في حكم عدم الجزم بها"(4)، وهذا أليق ما يكون بمقام التحدي وعرض زيف المشركين وكون الخطاب فيها للتهييج .

مادة ريب: فسر الريب بالشك، يقول الشوكاني: " (فِي رَيْبٍ)" أي: شك "(5)، وقال أبو عطية الأندلسي: " [الريب] الشك، وهذه الآية أن الخطاب المتقدم إنما هو لجماعة المشركين"(6).

تبدو لفظة الريب مرادفة للشك ترادفا جزئيا، لأن القرائن التي وقع فيها الريب تختلف الدلالة فيها جزئيا عن تلك التي وقع فيها الشك، ليتجلى أحد أسرار الإعجاز اللغوي القرآني في إيقاع المفردة فيه موقعها الذي لا يغني عنها فيه مفردة أخرى.

وهذا العدول عن مادة (شك) إلى مادة (ريب) وثيق الصلة بتكثيف أفق الأفكار والحقائق، وتوليد معان ثانوية تضاعف قوة التأثير في المتلقي، ففي ثنايا التركيب الشرطي يأتي المكون اللغوي منسجما مع سياق الحال، فيتم اختيار الوحدة اللسانية الأليق بالسياق، والأحكم في الإبانة، والأعمق تأثيرا في النفس.

ومع سبق التفريق بين الشك والريب، يمكن أن ندرك علة نزوح الآية عن مادة (شك) إلى مادة (ريب) بما تعنيه المادة من سيطرة حالة القلق والحيرة والتخبط التي تنجم عن الشك، وهو "أن تتوهم بالشيء أمرًا ما فينكشف عما تتوهمه"(7)، وكون الريبة وهم لا يدعمه دليل، بخلاف الشك الذي قد

(1) الحجاج في الشعر العربي (بنيته وأساليبه)، سامية الدريدي :327، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، 2011.
(2) التحرير والتنوير :335/1.
(3) السابق :336/1.
(4) قضايا نحوية بين الافتراضات النحوية والواقع اللغوي، أيوب جرجيس العطية :41، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 2013.
(5) فتح القدير :37/1.
(6) المحرر الوجيز :64.
(7) المفردات للأصفهاني :212_213.

تدعمه الدلائل، ومن ذلك أيضا أن "الريب والريبة: الظنة والتهمة"(1)، أضف إلى ذلك سبق لفظ (ريب) بالأداة (فِي) التي تعني الملابسة، لمعنى استحواذه عليهم وإحاطته بهم، والتنكير في ريب الذي يفيد القلة انسجاما مع حال المخاطبين وكثيرهم مشرك قليل الريب قريب من الإيمان، وقليلهم مشرك بعيد عن الإيمان كثير الشك والريبة، قوي العناد، مفرط في اللدد .

هنا يتبدى ما يتسم به القرآن من جمال وعمق بياني، وسعة في آفاق تحليل جوانب النفس، حيث تنبعث دلالات الخطاب مما يحمل في أطوائه من مفردات تتساوق مع المواقف، من خلال أطر تركيبية وأساليب تعبيرية تتواءم وانتقاء مكوناته اللغوية، ليوجه المتلقي إلى فكرة بعينها، أو يقوده إلى نتيجة محددة.

حيث تكمن جمالية ربط المتلقي بالواقع النفسي للمشركين، وإبراز سلوكهم، فالذي يتغياه الخطاب القرآني هو الكشف عن خبايا نفس المشرك، وفضح سلوكه، فكلمة (ريب) تتغلغل في شعاب نفس المشرك وتساير عملية الكشف عن باطنه وسلوكه، تكشف خبيئته وما يعتوره من قلق واضطراب وتخبط، وتفضح نوازعه، فتصمه بالخوف والكراهة، وتكشف زيف مزاعمه فما تعدو أن تكون وهما، سرعان ما ينكشف عما يتوهم، إذ لا دليل يدعمها ولا حجة تعضدها.

الدرس الأسلوبي لمادة (ريب) لا يعنى بالعنصر اللغوي، بل بدرجة قوته وانسيابيته وتعمقه في لحمة الخطاب، وأن اللغة في محيطه تشكل أداته الناقلة لمجموعة الانفعالات، لذلك فإنها تعنى بالكيفية القولية، فالعدول عن مادة الشك ذو فائدة، لأن العدول لا يعد غاية في ذاته إلا بالقدر الذي يثير السامع ويحفزه على الوصول للمعنى.

صيغة الفعل (نزّلنا): صيغة (فعّل) هنا تتحول بالفعل إلى درجة من المبالغة والتوكيد تبعًا لمقتضيات السياق، حيث وردت في معرض الحديث عن قدرة الله تعالى والدعوة لعبادته وحده، والإقرار بنبوة نبيه ﷺ .

وقد عدل النص بصيغة نزّل عن أنزل، لأن الإنزال يلاحظ فيه صدور الفعل من الفاعل، فالنظر فيه إلى جهة الصدور.. أما التنزيل فيلاحظ فيه جهة الوقوع، فيكون النظر إلى الفعل من جهة الوقوع وتعلقه بالمفعول.

في هذا الإطار أشار الفعل (نَزَّلْنَا) إلى عدة جوانب تتصل بالحدث، أهمها نص هذا الكتاب ومنزله. ولعل في صيغة (نَزَّل) تسليط على القرآن الكريم وإحكام نصه فيما يتوافق مع دعوة الإتيان بسورة من مثله فمن ذلك: أنه نزل منجمًا مفرقًا في عموم النص، وخصوص الآيات داخل السور، وأن بعضه نزل بمكة والآخر بالمدينة، ولكل خصائص تميزه وتختص به، من حيث طبيعة الخطاب، والمخاطَب، ومادة الخطاب، ولغته..

كما عبر التكثير الوارد في الصيغة عن تكثير قوة الحدث في طبيعته وكيفيته، تأكيدًا لأهميته وأهمية العمل به، وعكس خطورة المنزل وخصوصيته، وفي خطاب المنكرين بتلك الصيغة ما يمنح المرتابين

(1) المحكم والمحيط الأعظم، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي :307/10، تحقيق عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2000.

المهلة لإنجاز مهمتهم في الإتيان بسورة من مثله، على ما يعكس ذلك من دلالة إعجاز النص القرآني، وكونه حجة، ومن ثم ناسبت الصيغة مقام التحدي الذي يكشف فيه زيف المزاعم والأوهام.

حرف الجر (على): في التعدي بعلى ما يشير إلى استعلاء المنزل على المنزل عليه وتمكنه منه، بخلاف (إلى) التي تدل على الانتهاء والوصول، ففي أنزل إليه ما يعني تسلمه له صلى الله عليه وسلم، وفي نزلنا عليك ما يفيد الاستعلاء فيلفت إلى ما في التلقي من العلو، فالعدول عن أحد الحرفين إلى الآخر غايته ما يضمنه الوصول إليه من التصديق للنبوة، بينما في التنزيل عليه تصديق للربوبية.

ومن الفروق بين (إلى) و(على) أن (إلى) تدل على انتهاء الغاية، والانتهاء يكون من جميع الجهات، أما (على) فهي حرف استعلاء، واقترانها بالفعل (أنزل) يفيد النزول من جهة العلو دون سائر الجهات.

وفي السياقات القرآنية التي ورد فيها التركيب (نزّل / أنزل- على)، لوحظ أن الخطاب وجه للنبي، عليه الصلاة والسلام، والقرآن أنزل عليه من عل.

أما التركيب (نزّل /أنزل - إلى) فسياقاته إما في خطاب الأمة كلها، أو خطاب النبي صلى الله عليه وسلم مقترنا بالتبليغ، أي تبليغ آيات الله (إلى) الناس، ويكون ذلك من جميع الجهات، وهو ما يلائمه حرف انتهاء الغاية (إلى) "(1).

عبدنا: إظهار النص لشخصه عليه السلام، وجعل ذلك بعنوان "العبودية مع الإضافة إلى ضمير الجلالة – تنبيه على عظم قدره واختصاصه به وانقياده لأوامره، وفي ذلك غاية التشريف والتنزيه بقدره (ﷺ)(2)، وفيه لون نصرة له صلى الله عليه وسلم وبيان بأن الريب مصدره "كونه وحيا منزلا من عند الله عز وجل"(3)، حيث أفصحت (عَبْدِنَا)، وأشارت بلفظها إلى ما يقابل العبودية من الربوبية، باستلزم العبد لوجود رب، ومن ثم فالمنزل لا يختص برسول الله وإنما هو من عند من هو أعلى قدرًا وأجل مقامًا، وهو أدخل في مقام النزال والمحاجة.

الشك إذن في الخطاب القرآني انعكاس لحالة من يقدم رجلا ويؤخر أخرى، يتميل ويترجح بين رأيين، دون أن يبارح منطقة الوسط بلون تغليب أو ميل، وهو ما ينأى كل النأي عن الظن، ثم إنه لا يتداخل في إطاره الدلالي الذي يختص به مع سواه مما يزاحمه في الدلالة من مفردات كالمراء والريب، اللهم إلا في مساحة انتفاء العلم وما خلا ذلك يبقى لكل موضعه ومقامه وخصوصيته الدلالية التي لا ينازع فيها .

ثانيًا: الظَّنِّ:

وردت مادة (الظَّنِّ) في الخطاب القرآني تسعا وستين مرة على صور متعددة فوردت بصيغ: المصدر، وفعلي الماضي والمضارع، واسم الفاعل، واستأثر الخطاب المكي بالقسط الأوفر منها، إذ وردت في ثمان وأربعين سورة مكية وإحدى وعشرين سورة مدنية.

(1) معجم الفروق الدلالية: 630 .
(2) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: المجلد السادس 195/11
(3) تفسير أبي السعود :64/1.

وجاءت إما حكاية عن الأنبياء، أو بيانًا لأحوال الكافرين، أو كشفًا عن بعض أحوال المؤمنين، ما يمكن استجلاء جملة دلالاته عبر السياق الأسلوبي.

(1) الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم:

(أ) نبي الله يوسف عليه السلام

تحكم ثنائية الضد: عليم /متعلم قبضتها على نص سورة يوسف بأسره، وتمتد خيوطها، متوغلة في الحضور عبر مستويات: التكرار، وتوزيع الضمير، والامتداد بفاعليتها عبر سلسلة: الآباء/ الأبناء، تتغذى مفاصل الخطاب بهذه الثنائية مختلطة بأجزائه، فتغدو فاعلة بالقدر الذي ينتخب الألفاظ وينتقيها في السياق، ويحدد الظواهر البنائية فيه انطلاقا من مركزيتها، فهي الثنائية المتسلطة على الخطاب والموجهة له، إذ هي غائرة في أعماقه، مجمعة لخيوطه، بحيث تعد المفتاح الذي ينفتح به النص على جملة ما يحمل من رسائل وما يكتنز من أسرار.

في قصة نبي الله يوسف -عليه السلام- ورد قوله تعالى: (وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ) [يوسف:42]، وذلك عقب تأويله لرؤيتيّ صاحبيه في السجن، (يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ) [يوسف:41].

أسند بعضهم الضمير في "ظن" إلى الذي قيل له: "إنه يسقي ربه خمرًا، لأنه دخلته أبهة السرور بما بشر به، وصار في رتبة من يؤمل حين ظن وغلب على معتقده أنه ناج"(1)، إلا أن السياق لا يحقق ذلك فهو بعيد "لأن التوصية المذكورة بعده [اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ] لا تدور على ظن الناجي، بل على ظن يوسف"(2).

فالراجح أن الظان هو يوسف – عليه السلام – وهو ما حدا بالمفسرين إلى حمل الظن على دلالة اليقين استدلالا بقوله تعالى: (قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ)، وقيل فيه إنه "دال على وحي"، لكونه نبيًا، قال القرطبي "وإنما يكون ظنًا في حكم الناس، وأما في حق الأنبياء فإن حكمهم حق كيفما وقع"(3).

قراءة سياق قصة يوسف – عليه السلام – تقود إلى استدعاء لفظة "ظن"، بما يعني ترجيحًا لأحد طرفين على الآخر، وقد رجح يوسف – عليه السلام – نجاة الساقي، ترجيحًا أكده الماضي (ظن) لدلالة الثبوت والتحقق، و(أن)، واستخدام اسم الفاعل (ناج) عدولا عن المضارع (ينجو) مبالغة في الدلالة على تحقق النجاة.

وإنما استخدم الظن مراعاة لمقام (وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ) [يوسف:76]، فقد آل السياق إلى استخدام مادة الظن عبر تواتر للثنائية الضدية: عليم/متعلم، والتي أفرزها سياقي السباق واللحاق باطراد عقب مستويات رؤى يوسف – عليه السلام – وحين الوحي إليه في الجب، وقد ترقى في مضمار النظم القصصي من مقام الرائي إلى مقام مؤول الروىء، ومن مقام الرؤيا إلى مقام تحققها، دون أن ينقطع هذا الخيط المتصل بينه وبين معلمه، وفق اعتبار: الأعلى/الأدنى.

(1) تفسير أبي السعود، (ارشاد العقل السليم): 280/4.
(2) المحرر الوجيز: 996.
(3) تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن): 194/9.

- (يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ) [يوسف:4]

(وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ) [يوسف:6)

- (وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ) [يوسف:15]

(وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ) [يوسف:21]

(وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ** قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا) [يوسف36: 37].

(ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي) [آية: 37].

- (وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا) [يوسف:100]

(رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ) [يوسف:101].

عبر هذا الامتداد لتلك الثنائية: عليم/ متعلم، ومن خلال تلك الآية التي أقفلت المبنى الحكائي لقصة يوسف، يتحدد موقع يوسف – عليه السلام – مقرًا بضآلة ما لديه من علم التأويل (مِنْ تَأْوِيلِ الأحاديثِ) "أي بعض تعبير الرؤيا"(1)، وأنه مما علمه ربه (عَلَّمْتَنِي).

يتماهى هذا كله مع انتشار اسم الله (العليم) وامتداد تكراره في مساحة النص، وصفًا لله مردداً سبع مرات، فهو وحده "العالم بما كان وما يكون قبل كونه، ولا يزال كذلك، كما لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، المحيط علمه بجميع الأشياء: ظاهرها وباطنها، دقيقها وجليلها على أتم الإمكان"(2)، إذ صيغة المبالغة (عَلِيمُ) تفيد ثبوت الصفة ورسوخها، فلا تستعمل إلا عن قصد تأكيد الفعل"(3)، فهي لصيغة تدل على الطبائع، إذ هي منقول عن الصفة المشبهة، فعليم يدل على أنه لكثرة علمه وتجرده فيه أصبح طبيعة ثابتة، وسجية ملازمة.

في نص سورة يوسف تتشكل " مجموعة من الثنائيات المتشابكة والمتقابلة، تنعكس على شبكة العلاقات فتحيلها إلى مجموعة من الثنائيات الخالصة "(4)، إذ الكلمة ليس لها معنى بذاتها " بل معناها

(1) روح المعاني: المجلد السادس 398/12.
(2) النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين بن الأثير: 292/34، نشر دار الباز، مكة المكرمة.
(3) أسماء الله الحسنى، دراسة في البنية والدلالة، أحمد مختار عمر :37، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2000، وقد لوحظ أن لفظة عليم في الإستخدام القرآني تميزت عن عالم وعلام بأن الصفتين عالم وعلام جاءا مقيدين دائمًا بعلم الغيب (وقد تضاف إليه الشهادة)، أما "عليم" فحين قيدت تنوع متعلقها، وفي سورة البقرة "بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ" [أية 29]
(4) بناء الأسلوب في شعر الحداثة، محمد عبد المطلب :149، منشورات عالم الكتب، إربد، الأردن، 2020.

يكمن في وجود ضدها "(1)، حيث الضد مقارنة ومفارقة بين طرفين، وربط وتفاعل بينهما، لأن كلا الطرفين في المفارقة يلقي بظلاله على الآخر، فيظهر ملامحه ويزيده جلاء.

النص يعيد صياغة ثنائية: عليم / متعلم بصورة تفضي إلى استلهام النتيجة ذاتها، تحقيقا لما ينشده الخطاب من تحديد للمواقع، على الوجه التالي:

- (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وعلما) [يوسف:22]

* (إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) [يوسف:6]

* (إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) [يوسف:83]

* (إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) [يوسف:100]

فمقابل تكرارية العلم والحكمة الربانية، تنفرد آية واحدة ببيان ما أوتي يوسف من حكمة وعلم، والآية ذاتها تحتوي على ما يفضى إلى إعادة الثنائية الضدية: آتينا (نحن) /الهاء (هو)، الفاعل (المانح)/ المفعول (الممنوح)، ثم لتنظر إلى تكرارية سبق الحكمة بالعلم وصفا لله جل وعلا (العليم الحكيم) وتأخر العلم على الحكم حين اختص الأمر بيوسف عليه السلام (الحكم والعلم)، وإلى ما لدى يوسف من علم غير كامل واتصافه جلا وعلا بتمام العلم وكماله باختصاصه بالإحاطة بظواهر الأمور وبواطنها، حيث تقتضي صيغة المبالغة (عليم) المبالغة في الوصف بالعلم .

ومن ثم يغدو التكرار عنصرا فاعلا بما يوفره من التوكيد والإلحاح على تحديد المواقع، والمبالغة في إظهار كمالات الخالق في مقابل ضآلة المخلوق، فهو وليد ضرورة مدلولية، إذ تمثل الألفاظ المكررة جوهر المعنى.

يلح النص على الثنائية ذاتها عبر الضمير وتوزعه مع كلمة (علم) ما بين صيغ الخطاب والغيبة والتكلم: يعلمك/ هو - أنت، لنعلمه/ نحن- أنت، آتيناه حكمًا وعلمًا/ نحن - هو، مما علمني ربي/ هو - أنا، لما علمناه/ نحن - هو، علمتني / أنت - أنا، حيث تعد الضمائر بنى شكلية تمثل محور الجهة التي يصدر عنها النص، إذ تتراكم الصيغ في النص مع مادة (علم) لتسهم في تكوين البنية الدلالية وتبرز خيوط العلاقة بين الطرفين: العليم/ المتعلم، فهذه الثنائيات الضميرية التي ألحقت بمادة (علم) فاعلة مولدة للدلالة بقدر إبرازها للتناقض بين طرفين متقابلين بينهما نوع من التناقض في الأداء والوظيفة .

يمتد تفعيل هذه الثنائية بما صدر عن يعقوب عليه السلام (وَقَالَ يَا بَنِيَ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ**وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ)[يوسف 67: 68] .

(1) الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية (قراءة نقدية لنموذج إنساني معاصر)، عبد الله محمد الغذامي :30، منشورات النادي الأدبي الثقافي، السعودية، 1985.

.

والنص يحقق ثنائية عليم / متعلم بدرجة قصوى من الانسجام بين قطبي العلاقة، وهذا الانسجام ينتجه انصياع الأدنى-المتعلم، وانقياده للأعلى- العليم، حيث تتدفق حركية السياق من دينامية الفعل (التعليم) / رد الفعل (التعلم)، وعبر ما تولده تلك الحركة من أحداث غريبة، وما تخلقه من تطورات مثيرة للدهشة.

إذن ف (فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ) يشير بها النص إلى أن ما بلغه يوسف من علم علمه الله إياه، ليس هو نهاية العلم، بل هناك علم لا حدود له، ولا نهاية لمداه، وهو علم الله تعالى"(1)، يقول البقاعي:"ولما كان كل علم بالنسبة إلى علم الله عدمًا عبر عن علمها بالظن"(2).

بهذه الكيفية يمكننا اعتماد مادة (علم) من الكلمات المفاتيح التي ترتبط ارتباطا وثيقا بورود مادة (الظن) في السياق، بما لها من ثقل تكراري وتوزيعي في النص بدرجة تفتح مغاليقه وتبدد جانبا من جوانب غموضه.

فهو وحده المستأثر بالعلم، وهو سبحانه عالم الغيب (وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ) [آية:15]، (وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حافِظِينَ) [آية:81]، (ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ) [آية:102]، وهو وحده يحكم ولا معقب لحكمه (إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ)[آية:40] (إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ) [آية: 67]، (إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ) [آية:76] (يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ)[آية:80]، (إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ) [آية:100]، (فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ) [آية:110].

يتماهى مع كمال علمه وحكمته وحاكميته أنه سبحانه مظهر طلاقة القدرة وتمام الهيمنة والإحكام فـ "(اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) [آية:39]، (وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أمره) [آية:21]، تماشيًا مع المقصد العام لسورة يوسف إذ "مقصودها وصف الكتاب بالإبانة لكل ما يوجب الهدى [لما ثبت فيما مضى(من السور)] ويأتي في هذه السورة من تمام علم منزله غيبًا وشهادة، وشمول قدرته قولا وفعلاً"(3).

وهو ما حمل بعض مفسري قوله: (قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ) [آية:41] على أنه ما عنى أن الذي ذكره واقع لا محالة بل عنى به أنه حكمه في تعبيره ما سألاه عنه ذلك الذي ذكره"(4)، روى الطبري عن (قتادة) - (وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ) [آية:42] – قال: "وإنما عبارة الرؤيا بالظن، فيحق الله ما يشاء"(5)، ففسر بالظن دون اليقين، قال: "إنما ظن يوسف نجاته، لأن العابر يظن ظنًا، وربك يخلق ما يشاء"(6)، وفي المحرر (قُضِيَ الامر) دال على وحي، ولا يترتب قول (قتادة) إلا بأن يكون معنى قوله (قُضِيَ الأمر) أي قُضي كلامي وقلت ما عندي وتم، والله أعلم بما يكون بعد"(7)، إذ القضاء "فصل الأمر قولا كان ذلك أو فعلا"(8).

(1) القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، عبدالكريم الخطيب: 470، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ط2، 1975/1395.
(2) نظم الدرر: 92/10.
(3) السابق :1/10.
(4) التفسير الكبير :146/18.
(5) تفسير الطبري (جامع البيان)، محمد بن جرير الطبري :12 /222، دار الفكر، بيروت، 1408/ 1988.
(6) تفسير القرطبي: 194/9.
(7) المحرر الوجيز :996.
(8) لسان العرب: مادة ق ض ى.

ومن ثم تؤشر مادة (الظن) إلى كمال التأدب، مع من حفظ يوسف عليه السلام وآواه (وقال الذي اشتراه من مصر أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا كذلك مكنا ليوسف في الأرض) (آية: 21) ،(لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ) [آية:24]، (فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ) [آية:34]، (ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ) [آية: 38]، (أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ) [آية:101].

فـ "لعل التعبير به [الظن] من باب إرخاء العنان والتأدب مع الله تعالى فالتعبير على هذا بالوحي كما ينبيء عنه قوله: (قُضِيَ الأَمْرُ)، وهذا مما يعني أن يوسف عليه السلام وإن كان يتكلم بمقتضى الوحي واليقين، إلا أنه يجعل علمه (ظنًا) "كأنه يقول: ذلك مقتضى علمي، وما عندي خلافه، والعلم عند الله"(1).

وفق ما مضى، فجملة دلالات تكتنزها لفظة "ظن" في سياقها، والتي كانت لتغيب بإحلال "أيقن" محلها وهي:

1- أن فوق كل ذي علم عليم، وهو وحده سبحانه وتعالى من له كمال العلم ودوامه وله الحكمة في تصريف ملكه، جعل حكمته وعلمه ليوسف، عليه السلام، هبة جزء من كل.

2- أن الله يستأثر بعلم الغيب، ويحيط به وهو وحده يحكم ولا معقب لحكمه.

3- طلاقة القدرة الربانية، والهيمنة الإلهية، فهو سبحانه مظهر القدرة وتمام الإحكام.

4- كمال تأدب النبي يوسف – عليه السلام – مع ربه.

5- أن علم تأويل الرؤى في مطلقه علم ظني قائم على الاجتهاد فهو لون تنبؤ واستشراف خاضع لعلم علام الغيب، قال الألوسي: "واستدل به من قال: إن تعبير الرؤى ظني لا قطعي"(2).

(ب) نبي الله يونس عليه السلام :

في قصة نبي الله يونس، عليه السلام، كما أوردها موقع سورة الأنبياء، تبدو جملة من الانحرافات اللفظية وانحرافات الصيغة، حيث تم انتقاء الألفاظ والصيغ في السياق، وعدل عن غيرها، بتفضيل بعضها على بعض مما أدى إلى التوسع في خلق المعاني، لأجل خلق الإبداع، وتوفير حجاجية الخطاب، وجملة الانحرافات هذه وثيقة الصلة بإيراد مادتي: ظن ونقدر .

والعدول مصطلح عام يجمع تحت مفهومه جملة من الظواهر البيانية، والمصطلحات البلاغية، من أهمها مصطلح الالتفات، والانتقال من الحقيقة إلى المجاز والعكس، أو من صيغة في التعبير إلى صيغة أخرى، أو من خطاب إلى خطاب، أو من لفظة إلى مرادفها، كل هذا ومثله يدخل تحت مسمى العدول.وهو

(1) الدلالة الإعجازية في رحاب سورة يوسف عليه السلام، عمر محمد عمر باحاذق: 107، دار المأمون للتراث، بيروت، 1417 / 1997.
(2) روح المعاني: المجلد السادس 12 / 437.

من أهم خصائص الأسلوبية فهو مصطلح خاص بالأسلوبيين " ومن تعريفاته الكثيرة المختلفة قولهم: هو ما يحدثه المنشيء بكلامه من خرق لسنن اللغة "(1).

هو كما في دلالته اللغوية تحول عن المألوف والمعتاد، وتجاوز للمستقر والمعهود، وكسر للمعيار، يتم بقصد وعن وعي، ليحقق في النص قيمة لغوية جمالية، ترقى به إلى رتبة الحدث الأسلوبي، فهو إضافة جمالية وقيمة تأثيرية للنص، ولا يعد كل خروج عن السائد وولا كل خرق للمنظومة عدولا إلا إذا أحيا في النص قيما جمالية وتعبيرية .حيث " تؤطر الأسلوبية للانحراف عن درجة الصفر إظهارا للقيم التعبيرية التي تحتكم إليها الصياغة، مما يحدث أثرا جماليا مداره المعنى العاطفي الذي تقوده مرايا البيان وأساليب التأثير الناتجة عن تكثيف المدارات البنائية "(2).

وقد وقعت قصة يونس، عليه السلام، في آيتين اثنتين في سياق ذكر مِحَن الأنبياء، عليهم السلام، في مقام الرحمة والثناء، حيث يجلو النص المرحلة الأخيرة من مراحل لبثه، عليه السلام، في بطن الحوت: (وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ**فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ) [الأنبياء87: 88]

السياق يركز على آخر جوانب رحلته عليه السلام في بطن الحوت، من خلال التمفصلات السردية؛ المخالفة (إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا)، النداء (فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ)، الاستجابة (فَاسْتَجَبْنَا لَهُ)، المخالفة/ العمل/ الجزاء.

ففي سياق ذكره تعالى لمِحنْ بعض أنبيائه – عليهم السلام – واستجابته سبحانه لندائهم، اختصت الآيتان بعرض محنة نبي الله يونس وهو في بطن الحوت، واستغاثته والتوسل إليه سبحانه وذكر ما أعقب ذلك من الكشف والإزالة لأسباب المحنة، بما دل عليه حرف السرعة والتعقيب (الفاء) وبصيغة المبالغة (فَاسْتَجَبْنَا)، والعطف عليها بـ (نجينا)، " فالنجاة وقعت حين الاستجابة إذ الصحيح أنه ما بقى في بطن الحوت إلا ساعات قليلة"(3).

وذلك موقف الشدة الذي لا مزيد لشدة عليه، وقد أطبق على يونس – عليه السلام – القلق والغم واستبدت به مشاعر الرهبة والخوف ممن ضيق عليه سبحانه حين ضاق بقومه، حيث تتحرك الكلمات وفق معطيات المشهد المطروح لإبراز المغزى.

ذا النون: يؤشر (ذا النُّونِ) لما آل إليه حال يونس عليه السلام، وهو في موقعه من النص في وضعية إظهار للنتيجة في مقابل السبب (ذَهَبَ مُغَاضِبًا)، بصورة تدعو إلى الدهشة.

إذ نزح السياق إلى استخدام (النون) بدلا عن (الحوت)، وقيل في ذلك إن "الحوت العظيم من السمك ومثله النون، والجمع حيتان ونينان"(4)، وقد يطلق الحوت على السمك عمومًا، "ولما كان مقام الآيتين مختلفًا من حيث كون سياق آية القلم [التي ورد فيها لفظ الحوت] سياق نهي، وآية الأنبياء في معرض

(1) الحجاج في القرآن، عبد الله صولة :170.
(2) الأسلوبية وطرق قراءة النص الأدبي، عمر عبد الله العنبر، ومحمد حسن عواد :441، بحث منشور في مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، كلية الآداب، الجامعة الأردنية، مجلد :41، عدد 2، 2014
(3) التحرير والتنوير: 17/ 133.
(4) مبادئ اللغة، الخطيب الإسكافي: 153، مطبعة السعادة، مصر، ط1، 1325.

ذكر وثناء – اختلف اللفظان لذلك، إذ قيل: إن النون أشرف من الحوت، ولعل ذلك يعود إلى أن النون خاص بالحوت العظيم، في حين يأتي الحوت مطلقًا في السمك"(1).

اقترن لفظ النون بـ (ذا)، واقترن الحوت بصاحب، وقد ذكر فيها أن "إضافة ذو أحسن من إضافة صاحب، وقد كشف السهيلي عن هذه الكلمة في القرآن الكريم، إذ قال: "والوصف بذو أبلغ من الوصف بصاحب، والإضافة بها أشرف، فإن ذو يضاف للتابع، وصاحب يضاف إلى المتبوع، تقول: أبو هريرة صاحب النبي، ولا تقول النبي صاحب أبي هريرة، وأما ذو فإنك تقول: ذو المال وذو العرش، فتجد الاسم الأول متبوعًا غير تابع، وبُني على الفرق أنه تعالى قال في سورة الأنبياء: (وَذَا النُّونِ) فأضافه إلى النون وهو الحوت، وقال في سورة (ن): (وَلا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ) والمعنى واحد، لكن بين اللفظين تفاوت كثير في حسن الإشارة إلى الحالتين، فإنه حين ذكره في معرض الثناء عليه أتى بذي، لأن الإضافة بها أشرف وبالنون، لأن لفظه أشرف من لفظ الحوت"(2).

الأمر يجاوز هذا الحد، فعدول السياق عن (صَاحِبِ الْحُوتِ) إلى (ذا النُّونِ) انتقاء لفظي ضمن مجموعة الكلمات الدالة، فمع الالتقام والمصاحبة وهما مرحلتان أوليتان في علاقة يونس بالحوت ظهر (صَاحِبِ الْحُوتِ)، مع ما يستدعيه الالتقام والنزول وأوليات الوجود في بطن الحوت من الحركة والاضطراب إذ "مادة الحوت تعني الميل والاضطراب"(3)، ومع المرور الزمني عدل عن صاحب إلى (ذَا)، إذ الصاحب من المصاحبة، وقد حصل أن صاحب يونس، عليه السلام، الحوت مدة من الزمن، أما ذو ففيها ملازمة كملازمة الصفة للموصوف.

فثمة ما يشير إلى استقرار يونس في بطن الحوت، بمرور الوقت الذي أحال المصاحبة إلى ملازمة، وهذا التطور الزمني أدى إلى تفاقم حالة الضيق المكاني والنفسي ليونس عليه السلام.

ولعل في لفظ (النون) ما يحيل إلى حرف المعجم (النُّونِ) وفي المقاييس: "وذو النون: سيف لبعض العرب، كأنه شبه بالنون، والنون حرف من حروف المعجم"(4)، فخطاب العقل هنا يستدعى خطاب البصر، فيؤشر لفظ النون مع فرادة وروده في النص القرآني إلى خطورة الحدث المعروض وخصوصيته من ناحية، كما يفرض بتأليفه الصوتي واقعًا مشاهدًا من ناحية أخرى إذ النون حرف يأتي (للتعبير عن البطون في الأشياء)(5)، فاللفظ يكرس رؤية تخيلية لما آل إليه يونس عليه السلام من ضيق في بطن الحوت، فبطن الحوت هي وعاء حرف "ن" ويونس عليه السلام نقطتها، أضف إلى ذلك أن اللفظ في نطقه مؤلف من صوتي (نون) فهو لون إلحاح نصي على إظهار حال يونس عليه السلام وتأكيد مدى ما يعانيه من الضيق المكاني، لاسيما مع المد بالمطلق الواو وما يدل عليه، حيث ارتبطت الواو بدلالات تتناسب مع رمزيتها الصوتية، فتلخص في لفظ النون حالات الضيق والرهبة والقلق التي استبدت به عليه السلام، فبتلك الكيفية يمكن اعتبار (النون) نتيجة، استهل به السياق قبل ذكر السبب (ذهب مغاضبا).

(1) دقائق الفروق اللغوية :111.
(2) البرهان في علوم القرآن، الزركشي :160/1، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، 1391.
(3) في معجم المقاييس: (حوت) " الحاء والواو والتاء أصل صحيح منقاس، وهو من الاضطراب والروغان، فالحوت العظيم من السمك، وهو مضطرب أبدا غير مستقر.
(4) المقاييس: نون.
(5) خصائص الحروف العربية ومعانيها، حسن عباس: 160، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1998.

فإذا علمنا أن موحيات صوت حرف النون ومعانيه، "تتغير بحسب النطق به، فهو يوحي تارة بالحركة من الداخل إلى الخارج، وهو الانبثاق، كما يوحي تارة أخرى بالحركة من الخارج إلى الداخل، وهو النفاذ في الأشياء.. وهذا .. ليس من قبيل الجمع بين المتضادات في معاني الحروف، كما يرى القائلون بجدلية الحروف العربية، فالحركة المنبثقة من الداخل إذا أعطيت مزيدا من الشدة، وسلطت على الأشياء الخارجية فإنها بعد تجاوزها نطاق الذات، لا بد أن تنفذ في الأشياء حتى صميمها وهي في ذات الاتجاه "(1)، فلعلنا إذ ذاك ندرك مدى المطابقة بين النون وما عاينه يونس عليه السلام، فثمة خروج اتسم بالشدة والحدة أعقبه نفاذ إلى بطن الحوت، ثم خروج منها، فكأن النص يكرس بالنون ليس إلى الضيق وحسب ولكنه ينحو به نحو علاقة سببية إذ لما خرج عليه السلام غاضبا محتدا نفذ في بطن الحوت، ثم كان الخروج مع النداء، وكأنما يفصح النص بالنون عن عمليتين متضادتين: خروج /دخول، ثم دخول /خروج .

ذهب: الذهاب: السير والمرور، ذهب: يذهب ذهابًا وذهوبًا، فهو ذاهب، وذهوب"(2).

ووفقًا للحركة، فإن فعل (ذهب) يكون تقدميًا، وفي جميع الاتجاهات، ويكون بقصد لأن الإنسان يذهب إلى المكان قاصدًا تحقيق هدف معين، وقد يكون هذا الفعل بإرادته أو رغمًا عنه"(3)، ويبدو أن الحركة في هذا الفعل لا تكون إجبارية إلا إذا الفاعل ذا قوة وسلطة وغالبًا ما كان الله تعالى في القرآن الكريم"(4).

فالذهاب مطلق مفهوم الحركة والانتقال، قال الألوسي: "كان ذهابه هجرة عنهم لكنه لم يؤمر به"(5)، وثمة ما يفرق في اللغة بين الذهاب والهجرة، إذ الذهاب مضي ومرور والهجرة تعني مفارقة الإنسان غيره، وترك بلد والاتجاه إلى بلد آخر، وقد عبر عن خروج يونس بالذهاب لما يدل على مطلق مفهوم الحركة من نقطة مادية، فالأصل فيه المضي والحركة، ومن هنا انصبت عناية النص على بيان أن خروجه كان دون الهجرة وغير الإباق، لمجرد السير والمضي؛ وهو بخلاف (أبق) الذي أظهر مخالفة يونس؛ وكشف عما اعترى خروجه من خوف واستخفاء وتستر.

مغاضبا: وهو بيان لحال خروجه عليه السلام، وقت بارح قومه، قال ابن فارس في الغضب: "إنه يدل على شدة وقوة: يقال إن الغضبة الصخرة الصلبة، قالوا: ومنه اشتق الغضب، لأنه اشتداد السخط"(6)، فهو"تحرك في النفس إلى حدة وشدة في قبال شيء آخر، ويقابله الحلم، وهو التعقل والسكون(7)، ففي الغضب "خروج النفس عن الاعتدال في التعقل والسكون، وحركته إلى جانب الحدة والشدة والاشتعال"(8)، ويعرف ابن منظور الغضب بأنه "نقيض الرضا"(9).

(1) السابق: 161.
(2) أفعال الحركة الانتقالية الكلية للإنسان في القرآن الكريم، عماد عبدالرحمن خليل شلبي: 43، رسالة ماجستير/ جامعة النجاح الوطنية/نابلس/فلسطين، 2010.
(3) نفس المرجع السابق :43 .
(4) السابق :43.
(5) روح المعاني: المجلد السادس 11 /79.
(6) المقاييس: جذر، غ ض ب.
(7) التحقيق في كلمات القرآن الكريم: 282/7.
(8) السابق :7 / 282.
(9) لسان العرب: غ ض ب.

التركيب البنيوي للفعل "مُغَاضِبًا" وبناؤه على صيغة "مفاعلة" يفيد المشاركة أي "مراغمًا لقومه لما برم من طول دعوته إياهم وشدة شكيمتهم وتمادي إصرارهم(1)، وإن وجهت المفاعلة لمعنى "كون المغاضبة للمبالغة في الغضب لأنه غضب غريب"(2) .

و بالجملة فالغضب لون ضيق في النفس كونه مقابلا للحلم والرضا، ومن ثم فهو مع ما تقدمه من وصفه عليه السلام بذي النون مما يكرس حالة الضيق التي ألمت بيونس عليه السلام قبل التقام الحوت له وإبان وجوده في بطنه، فثمة ضيق بالأرض وقد اتسعت ورحبت قابله ضيق بالبحر وقد احتواه بطن حوت، وهذا الضيق ناجم عن لون غريب من الغضب، غير المبرر، غير المقبول، مما يقدم للجزاء ويكرس له، " نقدر عليه" .

والنص يلح على بيان الضيق المكاني وقد انبهمت معالم الرؤية وعم الظلام، بلفظة "الظلمات".

نادى في الظلمات: " النداء: الصوت مثل الدعاء ..، وقد ناداه أو صاح به .. والنداء، ممدود: الدعاء بأرفع الصوت، وقد ناديته نداء"(3)، وفي المفردات "الدعاء كالنداء إلا أن النداء قد يقال بـ يا أو أيا ونحو ذلك من غير أن يضم إليه الاسم، والدعاء لا يكاد يقال إلا إذا كان معه الاسم نحو يا فلان، وقد يستعمل كل واحد منهما موضع الآخر"(4).

وفي النداء ما ليس في الدعاء من رفع الصوت والدعاء قد يكون برفع الصوت أو خفضه، وفي الدعاء معنى الطلب، أما النداء فتنبيه وإيصال أمر ما، وحدث النداء هنا دال على ما بلغه يونس عليه السلام من الضيق، فلم يدع ربه بل ناداه نداء المستغيث المستجير، فهو حدث تابع بل نابع من (نَقْدِرَ عَلَيْهِ).

أما الظلمات فهي "جمع ظلمة، والمراد ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة بطن الحوت، وقيل الظلمات مبالغة في شدة الظلمة (يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) [البقرة:257]، يتماهى لفظ الظلمات مع توجيه دلالة النون في مفتتح الآيتين، إذ يستحضر لفظ الظلمات صورة الجنين في بطن أمه وما يثيره المشهد من دلالات الضيق وشدة الضعف والحاجة والعوز، ويرشح هذه الدلالة قوله تعالى في سورة الزمر: (يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ) [آية :6]، فاللفظ هنا يفرض واقعا معاينا ويكرس استمرارية التخيل لحالة الضيق التي استهل بها النص.

وهنا يبرز نداء يونس بصيغته (لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) [الأنبياء:87] وهذا هو الموقع الذي اختص بنص النداء تماشيًا مع ما يفرضه المشهد الأخير من حياة يونس في بطن الحوت، كاشفا عن مدى قدرة الله: كيف ضيق عليه ؟وبماذا فرج ؟. حيث تؤدي الفاء في (فَاسْتَجَبْنَا) دورها في إظهار السرعة، وبيان التعقيب، وهي في التسلسل القصصي علامة الترتب السريع. اسْتَجَبْنَا لَهُ، أي أجبنا

(1) تفسير أبي السعود 8/ 82.
(2) التحرير والتنوير :17/ 131، وفي الكشاف: " ظن أن ذلك يسوغ حيث لم يفعله إلا غضبا له وأنفة لدينه وبغضا للكفر وأهله " :104/3، وبهذا يكون (ظن) مما يفسر سبب خروجه ويسوغه.
(3) لسان العرب: ن د ا .
(4) مفردات ألفاظ القرآن: ن د ا.

نداءه، والسين والتاء للمبالغة في الإجابة أي استجبنا دعوته العرضية بأثر كلامه"(1)، فالاستجابة مقصود منها "أوجدنا إجابته إيجاد من كأنه طالب لها بسبب ندائه: هذا بعظمتنا في قدرتنا على الأمور الهائلة"(2).

نجيناه من الغم / ننجي: تكرارية النجاة، يتوجه بها النص إلى دلالة القدرة موافقًا لتلك النجاة الفريدة العجيبة لبشري التقمه حوت، فهي إلحاح نصي على كمال القدرة الربانية مقابل ضعف يونس، وبيان لمدى رحمته به عقب ندائه، "أي مثل ذلك الإنجاء، من غموم يحسب من يقع فيها أن نجاته عسيرة"(3).

وفي نجيناه بتركيبها البنيوي على "فعّل" ما يفيد التكرار والتمهل غالبًا بشرط ألا توجد قرينة تعارض ذلك: نحو (قطّع وكسّر وفتّح وحرّف وسعّر)، ومن مقتضيات التكرار والتمهل في الحدث استغراق وقت أطول، وأنه يفيد تلبثًا ومكثًا، ف (قطع) يفيد استغراق وقت أطول من (قطع) وفي (علّم) من التلبث وطول الوقت في التعلم ما ليس في (أعلم)، تقول: (أعلمت محمدًا خالدًا مسافرًا) وتقول: (علمته الحساب)، ولا تقول (أعلمته الحساب)(4).

فاستخدام النص القرآني هنا لنجينا لمعنى التلبث والتمهل في النجاة، هذا التمهل الذي يحكم قبضة الضيق على يونس عليه السلام، بينما (أنجي) للإسراع في التخليص من الكرب والشدة، حيث يبرز حرف العطف (الواو) المسافة ما بين الاستجابة والنجاة بخلاف ما ورد من نصوص دلت على السرعة والتعقيب من مثل قوله تعالى: (فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ) [الأنبياء:76].

أما استعمال النص للغم دون ما يقاربه من مواد كالكرب، فلأن الغم ستر الشيء، ومنه الغمام لكونه ساترا لضوء الشمس، يقال غم وغمة، أي: كرب وكربة"(5)، والغم: هو شيء يغشى القلب"(6)،وهو "ما لا يقدر الإنسان على إزالته كموت المحبوب قلت: ويؤيده قوله تعالى في وصف أهل النار: (كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا) [الحج:22]، فإنهم لم يكونوا قادرين على إزالة ما بهم من العذاب"(7)، "وقد يوصف الغم بأنه عقدة في القلب"(8).

وأما الغم الذي صاحب يونس عليه السلام في قوله تعالى: (وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ)، فقد قيل فيه إنه يحتمل وجهين: أحدهما من الغم بخطيئته، والثاني: من بطن الحوت: لأن الغم التغطية"(9)، (الغم) مناسب لإثارة دلالات الحزن والخوف من المكروه والضرر، وهو شعور في القلب، ومما يوافق بطن الحوت، وتراكم الظلمات، وانقطاع الحيلة، وانقباض القلب.

(1) التحرير والتنوير: 127/17.
(2) نظم الدرر 12/ 46.
(3) التحرير والتنوير :127/17.
(4) بلاغة الكلمة، فاضل السامرائي :62، دار عمار، عمان، ط4، 1428/ 2007.
(5) المفردات: غ م.
(6) مقاييس اللغة غ م.
(7) الفروق في اللغة: 560.
(8) المفردات: غ م.
(9) النكت والعيون، أبو الحسين علي بن محمد الماوردي: 467/3، تحقيق السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت.

وعلى هذا النحو تضافرت معطيات الدوال داخل الآيتين لإثارة معنى الضيق الذي ألم بيونس عليه السلام مما يقطع بتوجيه دلالة "ظن أن لن نقدر عليه" لمعنى: ظن أن لن نضيق عليه، وليس ظن القدرة، وإنما عدل النص عن لفظ الضيق إلى القدرة، لأن في (نقدر) من الدلالات ما ليس في لفظة (نضيق).

في المقاييس: "ضيق كلمة واحدة تدل على خلاف السعة"(1)، وهذا الضيق إما اختص بالنفس فهو معنوي، وإما بالمكان الحسي، " وتستعمل في الفقر والبخل والغم ونحو ذلك "(2)، أما مادة (قدر) فتشمل دلالات تربو على دلالة الضيق، ففي المقاييس: "قدر: أصل صحيح يدل على مبلغ الشيء وكنهه ونهايته، وقدرت الشيء أقدره، وأقدره من التقدير، وقدرته وأقدره، والقدر قضاء الله تعالى الأشياء على مبالغها ونهاياتها التي أرادها لها، وهو القدر أيضًا، ومن الباب الأقدر من الخيل، وهو الذي تقع رجلاه موقع يديه، كأن ذلك قدّره تقديرًا، ومن قُدر عليه رزقه: فمعناه قُتر، وقياسه أنه أعطى ذلك بقدر يسير، وقدره الله على خليقته: إيتاؤهم بالمبلغ الذي يشاؤه ويريده"(3).

فجملة من الدلالات تكتنزها (نقدر)، " القوة في اختيار الفعل وتركه، بمعنى أنه قوة إن شاء فعل بها وإن لم يشأ لم يفعل... أما التقدير: فيدل على إجراء القدرة، وتعلقه في الخارج على المتعلّق، فإن إظهار القدرة هو فعلية العمل وظهوره على النحو الذي يريده ويختاره... وأما القدر بمعنى القضاء: فهو أيضًا حكم وتصويب وتصميم باختيار العمل المعين بعد تحقق القدرة، ثم يكون التقدير، وأما القدر بمعنى المقدار والمبلغ المعين: فهو اسم مصدر، وهو ما يتحصل من التقدير وإظهار القدرة،،، وأما القدْر بمعنى التضييق: فهو من لوازم التقدير، وأما القدر بمعنى الظرف الذي يطبخ فيه الغذاء: فإنه يلازم تحديد المظروف وتعيين مقداره"(4).

جملة ما تضمنه مادة (قدر) من دلالات هو ما حدا بالنص إلى العدول عن (نضيق) إلى(نقدر)، فمن القوة إلى إجراء القوة بالتقدير إلى القضاء وما يعنيه من الحكم إلى المقدار المعين المحدد إلى التضييق خلوصا إلى .. (القدر) أو الوعاء، وهي الدلالة التي تسهم في امتداد الصورة البصرية لما آل يونس عليه السلام، حيث تبرز جمالية الاختزان في المفردة القرآنية بدرجة تسمح للنفس بأن تتفاعل " مع المعاني العريضة التي يكتنفها اللفظ، وكأنه نواة لكل ما يدور من معان وتفصيلات وظلال نفسية "(5). حيث تشكل هذه الإيحاءات عناصر ضغط تستفرغ مرادات السياق، بما يناسب المقام الذي طرحت الآيتان من خلاله، بدرجة انسجام بديعة بين المعاني والألفاظ.

ومن ثم يمكننا الوثوق بتوجيه الظن لأصل معناه في الآية مما تقطع به مفردات النص ذاته،" أي ظن أن لن نضيق عليه في أمره بحبس ونحوه" (6).

(ج) نبي الله داود عليه السلام:

في سورة (ص) يقول تعالى: (وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ) [ص:24]

(1) المقاييس: ض ي ق.
(2) مفردات الأصفهاني: ض ي ق.
(3) السابق: ض ي ق.
(4) التحقيق: 9/ 227_228.
(5) جماليات المفردة القرآنية، أحمد ياسوف :270، دار المكتبي، دمشق، ط2، 1419/ 1999.
(6) روح المعاني: المجلد التاسع17 /80.

حمل الظن في الآية على العلم، فقيل: "الظن مستعار للعلم الاستدلالي لما بينهما من المشابهة الظاهرة أي علم بما جرى في مجلس الحكومة... فالمعنى وعلم داود عليه السلام إنما فعلنا به الفتنة لاغير"(1)، قال ابن عطية الأندلسي: "وقوله: (وَظَنَّ دَاوُدُ) معناه: شعر وعلم، وقالت فرقة: (وظن) هنا بمعنى: أيقن"(2).

وعلى هذا النحو، أوغل المفسرون في تحميل السياق من الدلالات ما لم يحتمله اللفظ القرآني ولا قصد إليه، وجعلوا مما نقلوا من روايات اليهود ونصوص توراتهم في شأن داود – عليه السلام – مدعاة لحمل الظن على اليقين، فذكروا أن الخصمين ملكان، وأن الفتنة المقصودة "فتنة داود عليه السلام بامرأة رجل يدعى أوريا، قال الزمخشري: " لما كان الظن الغالب يداني العلم استعير له ومعناه وعلم داود وأيقن...." إنما فتناه "أنا ابتليناه ولا محالة بامرأة أوريا هل يثبت أو يزل"(3).

ربما لا يسعفنا سياق المقام هنا -و هو الأولى- بنفي التهمة عن داود عليه السلام، ذلك أن سياق الحال ومقامية النبوة أدعى إلى نفي ذلك عنه، عليه السلام، فليس من الاصطفاء والاصطناع الإلهي لأنبيائه، عليهم السلام، أن تركب فيهم نوازع الافتتان بالمحرمات، وأن تنطوي دخائلهم على الخبائث، نقول إنه ربما لا يسعفنا سياق المقام بالقدر الذي انبرت به التفسيرات تلحق به الفتنة وتلصقها به، عليه السلام .

فلا مناص من تتبع السلسلة اللفظية لسياق المقطع، وتنحية ما علق بسياق المقام، بصورة مؤقتة، حتى نتمكن من استبطان المعاني، حيث تعد دراسة السياق اللغوي الأساس في رصد التشكلات الأسلوبية، فتناط بالكلمات وظيفة الكشف والإظهار، لأن المفردات هي المادة الخام التي تستخرج بواسطتها الدلالات، حيث تتضافر العناصر اللغوية وتتكتل لصناعة المعطى الدلالي.

يقول تعالى: اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ (17) إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (18) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ (19) وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ (20) وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (21) إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ (22) إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (23) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ (24) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ (25) يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (26)

ظاهر السياق ومفردات النص تدعو إلى خلاف ما ذكر العديد من العلماء والمفسرين ،إذ الأمر متعلق بالحكم بين الناس، سواء أكان من يتصدى لذلك: بشرا عاديا، أو ملكًا، أو نبيًا، وهذا كله كان داود عليه السلام - فيما أوضح السياق داخل الإطار اللفظي - وحيثما تعلق السياق بقضية الحكم بين

(1) تفسير أبي السعود: 221/7.
(2) المحرر الوجيز: 1596.
(3) الكشاف 23/ 924.

المتخاصمين، اقتضى ذلك وجود مادة (الظن) وحتم بقاءها على أصل دلالتها، وتنحية ما دون ذلك من دلالات، وهو ما يلتمس من خلال تعقب الكلمات المصاحبة لمادة (الظن) في السياق، الذي استهلت فيه قصة داود عليه السلام بقوله تعالى: " وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب " .

(شَدَدْنَا مُلْكَهُ): قويناه بالهيبة والنصرة وكثرة الجنود ومزيد النعم"(1)، (إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأرض): استخلفناك على الملك فيها، أو جعلناك خليفة ممن قبلك من الأنبياء القائمين بالحق"(2).

أضف إليها " آتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ"، أي " آتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ: النبوة وكمال العلم وإتقان العمل .. " وَفَصْلَ الْخِطَابِ" وفصل الخصام بتمييز الحق عن الباطل" (3) .

فإذا سلكنا ما تقدم، في صورة استدلال شبه منطقي وجدنا المقدمات: شَدَدْنَا مُلْكَهُ / آتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ/ جعلناه خليفة في الأرض، نتيجتها المتوقعة: (احْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ) "ولا تجر في الحكومة"(4)، و(اهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ)، أي إلى وسطه وهو العدل"(5)، وهو منطوق أحد الخصمين، وهو ذاته ما آل إليه السياق بالتوجيه الرباني الذي أقفل المبنى الحكائي لهذا المشهد المجتزأ من حياة داود عليه السلام: " فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ" أي بحكم الله وهو الحق والعدل،(و لا تَتَّبِعِ الْهَوَى) ،ما تهوى النفس أي توسط ولا تمل.

فمدار الأمر إذَن على ما حكم به داود υ، والظن مختص بذلك الحكم منتم إليه، حيث تتقاطع الكلمات في السياق وتتقابل عند ما يختص بالفصل والقضاء بالعدل بعيدا عن الزيغ والهوى:

احكم بيننا بالحق ولاتشطط واهدنا سواء الصراط

فاحكم بين الناس بالعدل ولا تتبع الهوى

وقوله تعالى: " وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى" يؤيد ما قيل أن ذنبه المبادرة إلى تصديق المدعي وتظليم الآخر قبل مسألته (فيضلك عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) دلائله التي نصبها على الحق"(6)، و التوجيه على هذا النحو يتساوق مع ما استهل به السياق من قوله تعالى: "اصبر على ما يقولون " .

وعلى ذلك فالأمر محض ابتلاء من الله لنبيه كما هي سنته وما يجريه على سائر الأنبياء، وموقع (الظن) من ذلك أنه ينقض ما تواتر من روايات حول افتتانه – υ– بامرأة أوريا "ولو كان المراد ما قيل من قصة المرأة التي على كل مسلم تنزيهه وسائر إخوانه عليهم السلام عن مثلها لقيل "وعلم داود" ولم يقل "ظن"(7) .

(1) روح المعاني: المجلد التاسع 170/17.
(2) تفسير البيضاوي المسمى أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين أبي سعيد عبد الله الشيرازي البيضاوي :171/23، تحقيق محمد صبحي بن حسن حلاق ومحمود أحمد الأطرش، دار الرشيد، دمشق، بيروت، ط1، 2000/1421.
(3) روح المعاني: المجلد التاسع 170/17 .
(4) تفسير البيضاوي: 169/23.
(5) السابق: 169/23.
(6) السابق: 171/23.
(7) نظم الدرر: 361/16.

ويقدح في كون المتخاصمين من الملائكة، أو على أقل تقدير لا يوقف السياق على كونهما كذلك" يقول الرازي: "(وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ) قالوا معناه وعلم داود أنما امتحناه، قالوا والسبب الذي أوجب حمل لفظ الظن على العلم ههنا أن داود υ لما قضى بينهما نظر أحدهما إلى صاحبه فضحك، ثم صعدا إلى السماء قبل وجهه، فعلم داود أن الله ابتلاه بذلك فثبت أن داود علم .. وأقول هذا الكلام يلزم إذا قلنا الخصمان كانا ملكين أما إذا لم نقل ذلك لا يلزمنا حمل الظن على العلم، بل لقائل أن يقول إنه لما غلب على ظنه حصول الابتلاء من الله اشتغل بالاستغفار والإنابة (1)

وعلى ذلك فالسياق يرشح مادة الظن بقرائن الألفاظ في سياقي السباق واللحاق، لتعضد قرائن السياق اللفظي قرينة المقام متمثلة في نبوته وعصمته، حيث أناط مقتضى السياق الدلالي لفظة الظن وتطلب وجودها، ومن ثم تجدر الإشارة إلى أهمية الدلالة التي يكتسبها النص من لفظة "ظن" في موقعها من الكلام:

1- أن الفتنة (أَنَّمَا فَتَنَّاهُ) لا تعني إلا الابتلاء وليس ما يفيد أنه فتن υ بامرأة، وهذا مما يقضي بعصمته υ، ويتساوق مع ما بديء به سياق المقطع "ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ" أي رجاع إلى مرضاة الله تعالى" وهو تعليل للأيد ودليل على أن المراد به القوة في الدين"(2)، فهو υ إذ ظن أنه فتن أدركته طبيعته .. إِنَّهُ أَوَّابٌ .. والتعقيب الذي جاء بعد القصة يكشف كذلك عن طبيعة الفتنة، ويحدد التوجيه المقصود بها من الله تعالى لعبده الذي ولاه القضاء والحكم بين الناس".(3)

2- على القاضي ألا يستثار، وألا يتعجل في الحكم، وألا يأخذ بظاهر القول، وأن يفسح لأطراف الخصومة، مما قد يغير وجه المسألة كليًا أو جزئيًا.

3- أن ترجيح الزلل في القضاء يوجب معاودة النظر فيه من جانب والتوبة والإنابة من جانب آخر، مما كشف عنه النص بفاء التعقيب "فَاسْتَغْفَرَ" والعطف عليها بـ "خَرَّ رَاكِعًا" والمتابعة بـ " أَنَابَ".

(2) المؤمنون

وردت مادة الظن في هذا المقام بصيغ ثلاث، توزعت بين الماضي، والمضارع، وصيغة المصدر،

وتستوقفنا الآية من سورة البقرة، من قوله تعالى: (وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (45) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (46)) [آية: 46]، قال الشوكاني:"والظن عند الجمهور بمعنى اليقين"،(4) "إذ لا يجوز أن يبعثهم على الاعتقاد المجوز النقيض فثبت أن المراد بالظن ههنا العلم".(5)

وذكر البقاعي أنه قد "عبر بالظن عن العلم تهويلًا للأمر وتنبيهًا على أنه يكفي العاقل في الحث على ملازمة الطاعة ظن لقاء الملك المطاع المرجو المخوف فكيف والأمر متيقن لا مراء فيه ولا تطرق

(1) التفسير الكبير: 198/26.
(2) تفسير البيضاوي: 168/23.
(3) في ظلال القرآن: 3522.
(4) فتح القدير: 54/1.
(5) التفسير الكبير: 53/3.

للريب إليه"(1)، ذلك أن في الآية تبكيت لأهل الكتاب بأنهم مع تحققهم للبعث يعملون عمل من لا يظنه فضلًا عن أنه يعلمه .. ويجوز أن يراد ظن الموت في كل لحظة".(2)

قال ابن عاشور إن الظن هنا "مشترك بين الاعتقاد الجازم وبين الاعتقاد الراجح والملاقاه والرجوع هنا مجازان عن الحساب والحشر أو عن الرؤية والثواب"(3)، والثواب والرؤية كل منهما "مظنون متوقع .. ففي وصف أولئك بالظن إشارة إلى خوفهم وعدم أمنهم مكر ربهم"(4)، إلا أن السياق ينفي هذا التوجيه، لأن (عطف وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) على ما قبله – يمنع حمل الظن على ما ذكر – لأن الرجوع إليه تعالى – المفسر بالنشور – أو المصير إلى الجزاء مطلقًا مما لا يكفي فيه الظن والتوقع – بل القطع به – اللهم إلا أن يقدر له عامل – أي ويعلمون – أو يقال: إن الظن متعلق بالمجموع من حيث مجموع وهو كذلك غير مقطوع به وإن كان أحد جزئيه مقطوعًا"(5)

و من جانب آخر فحمل دلالة الملاقاة على رؤية وجهه تعالى مما لا يتناسب والسياق، الذي تقدمت فيه الملاقاة على الرجوع، بل لعل ملاقاة الله هنا ترتبط - في وجه من الوجوه - بلفظي الصلاة والخشوع إذ يتناسب استحضار ملاقاة الله وقت الصلاة بما يترتب عليه من الخشوع .

جملة ذلك أن "يَظُنُّونَ" في الآية حُملت بدلالات: اليقين/ العلم/ بين الاعتقاد الجازم والاعتقاد الراجح/ ظن الموت/ ظن قبول العمل ومن ثم ظن الثواب/ ظن رؤية وجه الله تعالى.

والنظر إلى السياق يبرز أن اليقين الذي يقارنه العلم والاعتقاد الجازم، وظن الموت وتوقعه، ورجاء قبول العمل، وتوقع نيل الثواب، وترقب رؤية وجه الله مما ينتجه سياق الآية من دلالات ترتبط بالخاشعين والملاقاة والرجوع .

أما مادة الظن، فقد صدرت في ختام ذلك الشطر من الآيات التي توجه الخطاب فيها لبني إسرائيل، (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (40) وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (41) وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (42) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (43) أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (44)) [الآية 40: 42]

والقضية المثارة في الآيات محورها أنهم يعلمون الحق ويحيدون عنه، قائمة على مرتكزات نصية: تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا/ تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ/ تَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ/ تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ.

"(وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا) أي: لا تأخذوا لأنفسكم بدلًا منها (ثمنًا قليلًا) من الحظوظ الدنيوية فإنها وإن جلت قليلة مسترذلة بالنسبة إلى ما فات عنها من حظوظ الآخرة بترك الإيمان قيل كانت لهم

(1) نظم الدرر: 343/1.
(2) السابق: 343/1-344.
(3) التحرير والتنوير: 481/1
(4) روح المعاني: المجلد الأول 251/2.
(5) السابق: 251/1.

رياسة في قومهم ورسوم وهدايا فخافوا عليها لو اتبعوا رسول الله ρ فاختاروها على الإيمان"(1)، "(تأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم) عبر عن ترك فعلهم بالنسيان (وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ) مبالغة في الترك فكأنه لا يخطر لهم على بال وعلقه بالأنفس توكيدًا للمبالغة في الغفلة المفرطة"(2).

هنا يتجلى دور السياق الذي " يفسر الكثير من العمليات المصاحبة لأداء اللغة في وظيفتها التواصلية والإبلاغية لدى كل من منتج الكلام والمتلقي ... وأنه ركن أساس في فهم الرسالة اللغوية "(3)، إذ " بالعودة إلى السياق ينكشف الغموض في كثير من الكلمات وبفهمها يتمكن المحلل من الدخول في الإطارين الزمني والمكاني للحدث اللغوي "(4).

فثمة ما يأخذ بني إسرائيل وثمة ما يتركون، ثمة ما يتعلقون به وما ينبذونه، ثمة راجح ومرجوح، والسياق كله مداره على هذا انطلاقا من موقف بني إسرائيل، حيث يعالج النص انحرافهم وميلهم إلى الدنيا وترجيحها بالاستعانة بالصبر والصلاة، "أي استعينوا على ترك ما تحبون من الدنيا [وهو المرجح لديهم] والدخول فيما تستثقله طباعكم من قبول دين محمد ρ [وهو المرجوح عندهم]".(5)

والمقصود بالظن هنا والذي جعل وصفًا للخاشعين، هذا الظن الذي يعني "قوة أحد الشيئين على نقيضه في النفس"(6)، وهو الظن الخاضع للمواقف والذي يخرج من رحم اليقين، والنص يفصح عن ذلك من خلال مجموعة الألفاظ بصورة فريدة امتزج فيها يقين الآخرة بالترجيح المتجدد حيال كل حدث وأمام كل نازلة، حيث تتحول علامات الثبوت إلى مخازن أحداث وحركة في كلمات: الصبر/ الصلاة/ الخاشعين، بتجدد الأحداث وتداعي المواقف.

الصبر: مقصوده للعبد "الصبر على طاعة الله حتى يؤديها، والصبر على معصية الله حتى يتركها، والصبر على أقدار الله المؤلمة فلا يتسخطها"(7)، فالأمر مداره في الصبر على التوالي والتجدد، ومعناه اللغوي التحمل والثبات والتجلد، فهو قياس لقدرة العبد على تحمل الشدائد والابتلاءات، وفيه تجديد امتثال لأوامر الله، وتجديد اجتناب لنواهيه، ومنع بعد منع للنفس عن التسخط، وإمساك للسان عن الشكوى، ونهي للجوارح عن التشويش، وهداية للقلب إلى الرضا، وإرشاد للعقل إلى البصيرة في التصرف مع الأقدار.

الصلاة /إنها لكبيرة: والصلاة مدارها أيضًا على الصبر"من جهات في مخالفة حال المرء المعتادة ولزومه حالة في وقت معين لا يسوغ له التخلف عنها ولا الخروج منها".(8)، وتم الربط بين الصبر

(1) تفسير أبي السعود: 96/1.
(2) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، المجلد 1: 56/1، دار القرآن الكريم، بيروت، ط4، 1981/1402
(3) الخطاب القرآني، دراسة في العلاقة بين النص والسياق، خلود العموش :26، عالم الكتب الحديثة، 2005
(4) المسافة بين النظرية والتطبيق، خليل أحمد عمايرة: 355-356، وائل للنشر، عمان، 2004 .
(5) التفسير الكبير: 52/3.
(6) نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، ابن الجوزي: 425:431، مؤسسة الرسالة، بيروت، تحقيق محمد عبد الكريم قاسم الراضي، ط3، 1987/1407 .
(7) تفسير السعدي: 51/1.
(8) التحرير والتنوير: 479/1.

والصلاة بفعل واحد (استعينوا)، وبحرف واحد، وتقدم الصبر الصلاة " لأن تأثير الصبر في إزالة ما لا ينبغي، وتأثير الصلاة في حصول ما ينبغي"(1).

عبر عن ثقلها المنوط بعمليات تجديدها ولزوم أوقاتها بقوله تعالى: (إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ) " أي ثقيلة جدًا، والكبير ما جل قدره أو مقداره في حس ظاهر أو في معنى باطن"(2)، والتوكيد مرهون بما تضمنه الصلاة من ألوان تثقل على النفس، جعل ذلك بأداتي التوكيد: إن واللام وهو مما يفرض حقيقتها ويقتضي أن ثقلها غير قابل للنقاش.

الخاشعين: الخشوع، تطامن، وهو قريب من الخضوع، إلا أنه خضوع القلب والبدن، هو "هيئة في النفس يظهر منها على الجوارح سكونه ووقاره، وهو تأثر القلب بجلال الله، واستحضار عظمته وهيبته، وهو إشراق أنوار التعظيم في القلب، وخمود الشهوات والشبهات".(3)

ومدار الخشوع على التجديد الذي يقارنه الترجيح فـ "هو قبول وانقياد للحق إذا خالف الهوى والمراد"(4)، والتجديد فيه ماثل في صيغة اسم الفاعل بدلالته على الحدوث.

السياق يتحرك باستخدام "يَظُنُّونَ"، وهو بؤرة الآية، والذي تم التأسيس له عبر الاسم الموصول (الذين)، إلى فرض دلالة الترجيح على ما ينبغي ترجيحه حيال ما يعرض من المواقف على ما في ذلك من عسر على النفس، وذلك من خلال صيغة المضارع بانفتاحه الزمني، واستمراريته، وتجدده، وهو ما يقابل جملة أفعال المضارع المطروحة في سياق خطاب بني إسرائيل: تَكُونُوا/ تَشْتَرُوا/ تَلْبِسُوا/ تَكْتُمُوا/ تَعْلَمُونَ/ تَأْمُرُونَ/ تَنْسَوْنَ/ تَتْلُونَ/ تَعْقِلُونَ، حيث تم اختيار الشكل اللغوي الفعلي للتعبير عن الأحداث وتجددها، مع ما يخلعه المضارع على الأحداث من الحركة وما يبثه فيها من الحياة.

الخطاب مع صيغة المضارع مباشر متفاعل مع الحدث، يؤدي عبر صيغته دورا بارزا في السياق بحيث لا يمكن الاستعاضة عنه بأي من صيغ الفعل الأخرى، فالمضارع زمن حي يمكنه أن يبث الحياة في الأحداث بحكم دلالته الآنية الحاضرة، والسياق يوظفه لخلق تفاعل مباشر بين بنية الخطاب والعالم الخارجي، وهو أقدر على منح الأحداث درجة قصوى من الصدق والصراحة، إذ يسرد الواقع ويستحضر الأحداث وهي بصدد الوقوع أو كما لو كانت بصدد الوقوع، فيجليها ويدخلها في دائرة المشهدية، أضف إلى ذلك ما له من مزايا تعبيرية، فمن ناحية يحقق وقوع الأحداث، ويجعلها أوثق بزمانها ومكانها، ويعمل على حضور الأشياء، ومن ناحية أخرى هو أقدر على خلق تفاعل مباشر مع الخطاب بحكم دلالته الحاضرة التي تجذب انتباه المتلقي وتستدعي تركيزه، مما يعد خطوة نحو عملية الإقناع، حيث تسرد الوقائع حية نابضة، فتبعد المتلقي عن التشكك في الأحداث والقضايا المطروحة.

تم توظيف صيغة المضارع في السياق للإيحاء بوقائع عمليات الترجيح وبعثها ماثلة حاضرة، فثمة عمليات ترجيح مستمرة لصالح الدنيا، تقابلها عمليات ترجيح متكررة لصالح الآخرة، يلفت إليها السياق بمادة المضارع " يظنون"، تدعمه مادتي: الصبر والصلاة وصيغة اسم الفاعل، والأمر (استعينوا)، إذ

(1) البحر المحيط :298/1 .
(2) نظم الدرر: 341/1.
(3) التواضع في ضوء القرآن والسنة الصحيحة، سليم بن عيد الهلالي: 12، دار ابن القيم للتوزيع والنشر، الدمام، ط1، 1410.
(4) السابق: 12.

التغلب على الأمور الشاقة وتحملها مما يحتاج إلى أساليب مدافعة الوساوس وتجاوزها، والارتقاء بالنفس فوق ماديات الحياة الدنيا .

يحافظ النص على بعد "اليقين" ويجعله مصدرًا للظن، وقاعدة يؤسس عليها منطلقه، من خلال جملة الألفاظ ذاتها: الصَّبْرِ/ الصَّلَاةِ/ الْخَاشِعِينَ، والصبر، ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الشهوة، فالصبر مصدره اليقين، فإذا كان الصبر مما يشير إلى العمل والسلوك، فإن اليقين معيار القلوب والعقول، وهو المحرك للصبر، فمتى حصل اليقين حصل الصبر، إذ العلاقة بينهما علاقة تلازم، فاليقين أصل والصبر فرع، واليقين أصل وقاعدة الصلاة وما اختصت به من الخشوع، فكل هذه ثمرات اليقين التي تفرعت عنه، عبر النص عن ذلك بصيغتي المصدر: الصَّبْرِ/ الصَّلَاةِ بدلالة المصدر على الحدث مجردًا من الزمن، وبالصيغة الاسمية: الْخَاشِعِينَ.

ومن جانب آخر، جعل الترجيح بالظن في أعلى درجاته، فأخرجه مؤكدًا محققًا بأداة التوكيد "أن"، وصيغة اسم الفاعل (أو المصدر الميمي) "ملاقو" والإضافة اللفظية (مُلَاقُو رب)، والحقيقية (رَبِّهِمْ)، وبالعطف " وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ "، حيث استخدم النص صيغة اسم الفاعل (مُلَاقُو) لما فيه من الدلالة بوقوعه وسطًا بين الفعل والصفة المشبهة، بما في الفعل من دلالة التجدد والحدوث، وإن كان أدوم وأثبت من الفعل، وبما في اسم الفاعل "مُلَاقُو" من الدلالة على فاعله، وبما يشير إليه من "إرادة استمرار اللقاء".(1)

هذا اللقاء المستمر الذي يبطن توالي عمليات استعراض الأعمال وحسابها، ويوقف على امتدادها الزمني وما يقع خلاله، فما تحققه الآية من المعنى: استعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين الذين يرجحون ملاقاة ربهم والرجوع إليه في كل حين، عند كل نازلة، وحيال أي خطب، وأمام أي ابتلاء.

وفي تقديم الملاقاة على الرجوع، إثارة لمعنى رهبة اللقاء ووقفة المراجعة والحساب توافقا مع المتقدم من قوله تعالى: وإياي فارهبون /أوفوا بعهدي /إياي فاتقون، حيث تحيي لفظة (ملاقو) بدلالتها المعجمية وصيغة اسم الفاعل معنى الاجتماع والمواجهة، وتستحضر أطراف اللقاء، وتمنح المشهد الحركة والفاعلية.

وعلى وفق ما تراءى توجه مادة الظن في السورة ذاتها في قوله تعالى: (قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ) [آية:249] .

وقد وجه الظن من قبل العلماء والمفسرين لمعنى اليقين في الآية، فقيل: "(يَظُنُّونَ): أي يتيقنون"(2)، قال الزمخشري: "الَّذِينَ يَظُنُّونَ: يعني الخلص منهم الذين نصبوا بين أعينهم لقاء الله وأيقنوه، أو الذين تيقنوا أنهم يستشهدون عما قريب ويلقون الله"(3)، قيل: "وغير جائز أن يضاف الإيمان إلى من جحد أنه ملاقي الله، أو شك فيه".(4)

(1) التحقيق: 255/10.
(2) فتح القدير: 169/2.
(3) الكشاف: 143/2.
(4) تفسير الطبري: 216/2.

و قيل: "ظن لقاء الله على هذا القول يحسن أن يكون ظنًا على بابه، أي يظنون أنهم يستشهدون في ذلك اليوم لعزمهم على صدق القتال".(1)

جزء من دلالة مادة الظن هنا عالق بظن الموت الذي يكشف عن درجة الثبات في العقيدة، إذ احتمالية الموت لا تردعهم عن القتال طاعة وامتثالا، إلا أن الأصل فيه أنه مما يعني الترجيح ويقصد إلى الاختيار، المرتبط بالمواقف والأحداث، فهؤلاء القوم من بني إسرائيل وضعوا في محك الاختبار مرات ثلاث، حين بعث الله لهم طالوت ملكا (وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ) [آية: 247]، وحين ابتلوا بالنهر (فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ" [آية: 249]، وحين بدا عدوهم من الكثرة والغلبة "قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ) [أية: 249]

"(وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ) ما قال ثم إن بني إسرائيل تعنتوا وحادوا عن أمر الله تعالى، وجروا على سنتهم فقالوا (أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ) وترك القوم السبب الأقوى وهو قدر الله وقضاؤه السابق وأنه مالك الملك".(2)

"(إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ) ومعنى هذا الابتلاء أنه اختبار لهم، فمن ظهرت طاعته في ترك الماء علم أنه يطيع فيما عدا ذلك، ومن غلب شهوته في الماء وعصا الأمر فهو بالعصيان في الشدائد أحرى".(3)

"(لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ): "لا طاقة لنا على جهة الفشل والفزع من الموت، وانصرفوا عن طالوت، فقال المؤمنون الموقنون بالبعث والرجوع إلى الله (كَمْ مِنْ فِئَةٍ.."(4).

فههنا " قضية محورية مركزية يلتقي عندها المبدع (سبحانه) والمتلقي "(5). حيث سياق الآية يدفع بمادة الظن بصيغة المضارع "يَظُنُّونَ" ليصف حال هذه الفئة التي ترجح في كل موقف لقاء الله وثواب الآخرة على أعراض الدنيا، فتعمل الصيغة، على إبراز دلالة الصفة الملازمة، وعلى إطالة مشاهد الترجيح لملاقاة الله، كما تبرز نتيجة هذا الترجيح، وتضفي دلالة الزمن المفتوح، فالترجيح مستمر متجدد بتجدد الاختبارات وعمليات الاختيار وهو عملية مستمرة زمانًا بعد زمان.

بهذا التوجيه يصبح اليقين ذاته ممحصًا مختبرًا مرجحًا في كل آن، فكأن الترجيح في كل اختبار لليقين، والمختبر هو اليقين، واليقين قاعدة الاختبار بما وصف به "الَّذِينَ يَظُنُّونَ" تارة بأنهم (الَّذِينَ آمَنُوا) وتارة بالإشارة لقيمة الصبر ـ "الصَّابِرِينَ"، حيث تنعكس دلالة السياق عبر هذا الاصطفاف اللفظي الذي بدأ ب (الذين آمنوا) متحركا من قاعدة اليقين، حيث أسفرت جملة الاختبارات عن تلك الهوية بالأحوال والمواقف التي انتهت بقولهم :"والله مع الصابرين".

(1) روح المعاني: المجلد الثاني 332/4 .
(2) السابق: 332/2.
(3) المحرر الوجيز: 225.
(4) السابق: 225-226.
(5) نحو النص، اتجاه جديد في الدرس النحوي، أحمد عفيفي: 98، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 2001.

بهذه الاختبارات ترتقي هذه الفئة "الدرج الشاق حتى تنتهي إلى مرتبة الاصطفاء والاختيار .. فإذا الفئة القليلة الواثقة بلقاء الله، التي تستمد صبرها كله من اليقين بهذا اللقاء وتستمد قوتها كلها من إذن الله. وتستمد يقينها كله من الثقة في الله، وأنه مع الصابرين ... إذا هذه الفئة هي التي تقرر مصير المعركة. بعد أن تجدد عهدها مع الله".(1)

هذا اليقين هو الذي عبرت الآية عنه بوصفهم أنهم الذين يرجحون ملاقاة الله على ما دونها من عرض زائل، لدى مواقف الاختبار والتمحيص .

والآية من سورة الحاقة يوجه الظن فيها إلى ما دل عليه في آيتي سورة البقرة، يقول تعالى: (إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ) [الحاقة: 20].

وقد توجه الظن فيها لدى المفسرين لمعنى اليقين، قال الألوسي: "أي علمت ذلك كما قاله الأكثرون بناء على أن الظاهر من حال المؤمن تيقن أمور الآخرة كالحساب، فالمنقول عنه ينبغي أن يكون كذلك لكن الأمور النظرية لكون تفاصيلها لا تخلو عن تردد ما في بعضها مما لا يفوت اليقين فيه كسهولة الحساب وشدته مثلًا عبر عن العلم بالظن مجازًا للإشعار بذلك. وقيل لما كان الاعتقاد بأمور الآخرة مطلقًا مما لا ينفك عن الهواجس والخطرات النفسية كسائر العلوم النظرية نزله منزلة الظن فعبر عنه به لذلك، وفيه إشارة إلى أن ذلك غير قادح في الإيمان وجوز أن يكون الظن على حقيقته على أن يكون المراد من حسابه ما حصل من الحساب اليسير فإن ذلك مما لا يقين له به وإنما ظنه ورجحه .. ولعل ذلك عند الموت .. وقيل يطلق الظن على العلم حقيقة وهو ظاهر كلام الرضي في أفعال القلوب وفيه نظر".(2)

و في فتح القدير: "قال مجاهد: ظن الآخرة يقين وظن الدنيا شك"(3)، وفي البحر المحيط: "أي: أيقنت، ولو كان ظنًا فيه تجويز لكان كفرًا"(4)، وفي المحرر الوجيز: "قال قتادة: ظن هنا هذا ظنًا يقينيًا فنفعه، وقوم ظنوا ظن شك فشقوا به .. و(ظَنَنْتُ) هنا واقعة موقع (تيقنت) وهي في متيقن لم يقع بعد ولا خرج إلى الحس، وهذا هو باب الظن الذي يقع موقع اليقين".(5)

السياق موازنة بين فريقين: فريق أوتي كتابه بيمينه، وآخر أوتيه بشماله، وردت فيه مادة الظن في صيغة الماضي على محور السورة التي تدافعت فيها الأحداث وتوزعت بين بيان أحوال المكذبين ومآلهم في الدنيا: كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ/ فَأُهْلِكُوا، عَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ/ فَأَخَذَهُمْ، وبيان مصائر المخالفين والمؤمنين الموقنين في الآخرة.

والأفعال في السياق على محور سورة الحاقة تصدر بلفظ الماضي، متابعة لسياق السورة الحاد وألفاظها التي تقطع المسافات وتوالي الطرقات، متابعة لمقام الحشر وقد طويت صفحة الأرض وتجلت وقفة الحساب، وسط هذا الخضم تظهر مادة الظن "ظننت" مكتنفة بأداتي توكيد: إني/ أني، وكما كان "كَذَّبَتْ" عنوان عمليات الصدود والاستبعاد للدين الحق، جاءت "ظَنَنْتُ" عنوانًا لعمليات الترجيح

(1) في ظلال القرآن: 319-320.
(2) روح المعاني: المجلد الخامس عشر 54/29 .
(3) فتح القدير: 1526/29.
(4) البحر المحيط: 319/8.
(5) المحرر الوجيز: 1892.

المستمر لصالح الآخرة، حيث تحول الخطاب إلى صيغة الماضي متابعة للمقام إذ النظر منصب على نتائج الأعمال وآثارها المترتبة عليها في مشهد الحساب.

صدرت مادة الظن بصيغة الماضي، المعبر عن فعل مثبت متحقق، إخبارًا عن عمليات ترجيح متجددة استحق صاحبها أن يؤتى كتابه بيمينه، فمن خلال الألفاظ يتم استحضار مواقع الترجيح المرتهنة بالتكرار .

(يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ) "أي: تعرض العباد على الله لحسابهم وليس ذلك العرض عليه سبحانه ليعلم به ما لم يكن عالمًا به وإنما عرض الاختبار والتوبيخ بالأعمال"(1)، "و (لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ) لا من أجسامكم وأجسادكم، ولا من أعمالهم".(2)

والتجديد معاين بجلاء عبر مادتي: كتابيه وحسابيه بما يضمناه من دلالات، وبامتدادهما الصوتي، بانقلاب حرف التاء إلى الهاء، وتحول المقطع الصوتي الطويل المغلق إلى مقطع قصير مفتوح، بما يحمله هذا التحول من شحنات صوتية تعبيرية.

كتابيه: "كتب يدل على جمع شيء إلى شيء"(3)، وقد كتب الكتاب يكتبه كتبًا: إذا جمع حروفه، وأصل الكتب ضمك الشيء إلى الشيء"(4)، وفي الكتابة "دلالة أكيدة على التثبيت أقوى من الحكم والقضاء، والتقدير والفرض والإيجاب. وعلى هذا يعبر بالمادة في موارد يكون النظر فيها إلى التثبيت اللازم، فيقال هذا مكتوب، وهذا كتاب، وقد كتب هذا. فيلاحظ في الأصل قيدان: الإظهار والتثبيت.

الكتاب أعم من المادي والمعنوي، وهو كل ما يضبط ويجمع ويحفظ فيه أمور، ماديًا أو معنويًا. والكتاب مصدر يطلق على ما يكتب فيه مبالغة، فإن النظر إلى الكتابة، فكأن اللوح المكتوب فيه غير ملحوظ، وقد تجلى الكتابة بصورة المكتوب".(5)

حسابيه: تذكر مصادر الوجوه والنظائر للحساب خمسة أوجه هي: العدد، الكثير أو الكافي، المحاسبة، التقتير، الجزاء .. ونجد أن كلمة (الحساب) في الأوجه الخمسة تدور في فلك الأعداد وإحصائها"(6)، فالكتاب والحساب يحويان معنى الامتداد والتجدد.

أضف إلى ذلك ما يقع في محيط المشهد المصاحب لمن أوتي كتابه بيمينه من كلمات مثيرة لدلالة التجدد والاستمرار، إذ يتبادل المعاش والمعاد المواقع، في قوله تعالى: " فهو في عيشة راضية" فيحيي النص أحداث المعاش الدنيوي ويحرك مشاهده ويبلور حوادثه بهذا التراسل الذي أحال المعاد معاشا، يدعم ذلك قوله تعالى: "أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ" "(بِمَا أَسْلَفْتُمْ) أي أعطيتم من أنفسكم لآخرتكم طوعًا من

(1) فتح القدير: 1524/30.
(2) تفسير السعدي: 883/29.
(3) المقاييس: كتب.
(4) الجمهرة، جمهرة اللغة، ابن دريد: مادة كتب، ط حيدر آباد، 1344.
(5) التحقيق: 20/10-23.
(6) الاشتراك اللفظي في القرآن الكريم، محمد نور الدين المنجد: 119، ط1، دار الفكر بدمشق، 1999.

الأعمال الصالحة وبما تركتم من الدنيا"(1)، قال الرازي: "يدل على أنهم إنما استحقوا ذلك الثواب بسبب عملهم"(2)، قيل: "أي التي أخليتموها من الشهوات النفسانية".(3)

بينما الترجيح المتجدد لصالح الدنيا ماثل في أعمال من أوتي كتابه بشماله، بما تكرسه صيغة المضارع: " إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ؛ ولا يحض على طعام المسكين " (33_34)، فههنا فئتان إحداهما آثرت الآخرة على الدنيا حيال المواقف والأحداث وأخرى رجحت الدنيا على الآخرة، وصدرت صحيفة كل منهما وفق ما اعتنق من العقائد وتعامل مع المواقف.

فعبر ما تضمن الألفاظ من دلالات صدرت "ظننت" على لسان الفئة المؤمنة في النص لمعنى رجحت في كل موقف أني ملاق حسابيه، مما هو مرصود في كتابيه لا تخفي منه خافية، جعل ذلك بصيغة الماضي لدلالة القطع والانقضاء وهو أدخل في باب التنديم في موقف الحشر والحساب وأوقع في الترهيب، فثمة أوقات تجدد فيها العمل لصالح قضية البعث والحساب قد انطوت صفحتها ولا سبيل لإعادتها، أي أن زمن الترجيح انفلت وأغلق بابه.

وعلى ذلك فصدور مادة الظن في تلك الآيات الثلاث لدلالات، ومنها:

- أنها ترصد المواقف والأحداث وعمليات الاختيار التي تعترض سيرورة الحياة فتجليها وتوضحها.

- تبرز كون عملية الترجيح للآخرة والملاقاة متجددة متكررة.

- تكشف عن الحالة النفسية والشعورية التي تعتري الإنسان وما يعرض له من الهواجس والخطرات.

- تظهر أن اليقين يختبر بالتعرض للمواقف وما يصاحبها من الهزات النفسية والعقلية.

- تقطع بأن يقين هذه الفئات في أعلى درجات الرسوخ والثبات، لا يتحول مع تقلبات وعوادي الأيام وطوارئها كونه من أفعال القلوب القابلة للتغير أو الفتور بما يعرض للنفوس مما يهز اليقين أو يوهنه في الصدور.

وهكذا يتجلى أن مادة الظن جيء بها في هذه المواقع الثلاثة لكشف عمليات الاختيار، فهي رصد لتخطي اختبارات صلابة العقيدة وقوة اليقين. و لذا صاحبت المادة لفظة الصبر في موقعي سورة البقرة " استعينوا بالصبر والصلاة "، " والله مع الصابرين "، " ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا "، وهذا هو الصبر الذي كشف عن معناه في موقع الحاقة من خلال: تعرضون لا تخفى منكم خافية / كتابيه / حسابيه / عيشة راضية / بما أسلفتم في الأيام الخالية لتباين الموقف والمقام (4).

(1) نظم الدرر: 365/29.
(2) التفسير الكبير: 113/30.
(3) روح المعاني: المجلد الخامس عشر 29_55/30 .
(4) بهذا المفهوم تدرك دلالات مادة الظن فيما رواه البخاري 3653، ومسلم2381، من قوله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر الصديق في غار ثور وقت هجرته المباركة: "ما ظنك باثنين الله ثالثهما" أحاديث رياض الصالحين، باب اليقين والتوكل، الحديث رقم :82، كما يمكن إدراك المراد بالظن في الحديث القدسي الذي ورد فيما رواه البخاري 7405، ومسلم 2675 "أنا عند ظن عبدي بي " أحاديث رياض الصالحين، الإمام النووي.

أما الآية من سورة الجن من قوله تعالى: (وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا) [آية: 12]، قيل "أي أيقنا (فِي الْأَرْضِ) أي كائنين في الأرض ولن نعجزه هربًا أي من الأرض إلى السماء، و(في الأرض) و(هربًا) حالان أي فارين أو هاربين"(1)، وفي روح المعاني: "أي علمنا الآن".(2) وعلى ذلك وجه الظن لليقين وفق اعتبار مقولة الجن ما بعد مرحلة الإيمان، يقول أبوعطية الأندلسي: "الظن هنا بمعنى العلم، وهذا إخبار منهم عن حالهم بعد إيمانهم".(3)

ونحن إذا اجتزأنا المقطع الأول من سورة الجن وتوقفنا به عند الآية الثالثة عشرة وهي الآية التالية لمادة الظن لاحظنا ما يأتي:

أولا: المقطع قائم على تقنية الاسترجاع (الفلاش باك)، أي أنه بدأ بالنتيجة ثم عاد فختم بها، بدأ بقوله تعالى: (إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا" [الآيتان: 1:2]، وانتهى بقوله تعالى: وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا) [آية: 13].

أما ما بين البداية والخاتمة فتفصيل لأحوال الجن ودواعي عدم إيمانهم، وإشارة النص في هذا من الوضوح، حيث استخدمت (كَانَ) لتفي بالدلالة على الماضي: كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا/ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ/ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ/ كُنَّا طَرَائِقَ.

ثانيا: ما بين الماضي والحاضر رصد النص حالة الشرك وأسبابه، حيث وقع الظن فيها جميعًا سببًا رئيسا مباشرًا بحيث تحول السياق إلى ثنائية: السبب/ النتيجة عبر سيمترية منهجية في استخدام مادة الظن: وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا/ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا/ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا، وهذا يقود إلى نتيجة واحدة وهي عدم الإيمان. فما رجحوه (ظَنَنَّا) وقف حائلًا دون إيمانهم حتى استمعوا إلى القرآن.

بيد أن الآية السابقة لمادة الظن من قوله تعالى "وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا" هي مبعث التداخل والدفع بمادة الظن لمرحلة ما بعد الإيمان، إذ ورد فيها لفظ " الصَّالِحُونَ"، "(وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ) ففسر على أنهم المسلمون العاملون بطاعة الله (وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ)، ومنا دون الصالحين (كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا)، أي: وأنا كنا فرقًا شتى، منا المؤمن والكافر، يقول الشوكاني: "منا المسلم ومنا المشرك".(4)

وهو ما لا يستقيم مع سياق اللحاق فيما بعد مادة الظن من قوله تعالى: (وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا) [أية: 14]، فإن ما قصد بالصالحين صلاح الفطرة والسلوك "(الصَّالِحُونَ) أي الموصوفون بصلاح الحال في شأن أنفسهم وفي معاملتهم مع غيرهم المائلون إلى

(1) البحر المحيط: 344/8.
(2) روح المعاني: المجلد الخامس عشر 99/29..
(3) المحرر الوجيز: 1908
(4) فتح القدير: 1540/29.

الخير والصلاح حسبما تقتضيه الفطرة السليمة"(1)، وفي نظم الدرر "أي العريقون في صفة الصلاح التي هي مهيئة لقبول كل خير"(2)، فقوله تعالى: "وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ .. الصلاح مقابل الطلاح .. والظاهر أن المراد بقوله (الصَّالِحُونَ) الصالحون بحسب الطبع الأولي في المعاشرة والمعاملة دون الصالحين بحسب الإيمان، ولو كان المراد صلاح الإيمان لكان الأنسب أن يذكر بعد ما سيجيء من حديث إيمانهم لما سمعوا الهدى".(3)

وإذ ذاك فإنه بإدراج مادة الظن في قوله تعالى: " وأنا ظننا أن لن نعجز الله" ضمن منظومة الكلمات التي جعلت كالعنوان على حال التخبط والضلال، إبان مرحلة ما قبل الإيمان، تغدو مادة الظن دلالة مطلقة على الماضي الذي تبدل بعد الإيمان فيما تجلى في الآيتين :" إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد فآمنا به" / " وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا "، بما تضمن الآيتان من المفردات ذات المعاني واضحة الإشارة إلى حال الاطمئنان والثبات، فيما يدعمه التكرار في كلمتي :(هدى) التي صدرت بصيغتي المضارع والمصدر ،و التي شاع ورودها في المدونة القرآنية مقابلا للفظة (ضلال)، ولفظة (إيمان) والتي كررت مرات ثلاث بصيغتي الماضي والمضارع، ليقابل النص بهذا التكرار النمطي الذي يحمل توكيدا لفظيا ومعنويا على السواء، بين الحال الآني للجن وحالهم في الماضي الذي جنح النص إلى استخدام مادة (الظن) والماضي (كان) عنوانا له، بما يمكننا من رصد تلك الثنائية الفاصلة التي تتفاعل فيها الأحداث على مستوى زمني: الماضي والحاضر .

والآية من قوله تعالى من سورة التوبة: (وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) [آية: 118].

الظن فيها أيضا لدلالة الترجيح حيث تكتلت الأسباب التي تقطع بأن لا رجاء لمن تخلفوا عن الجهاد مع رسول الله، وقد نبذوا ومنها :

- سبق قبول التوبة من سواهم (لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) [أية: 117] .

- إفرادهم وتخصيصهم كما بدا في قوله تعالى: (وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا).

- نبذهم وبلوغ العقاب مداه حتى ضاقت عليهم الأرض وضاقت عليهم أنفسهم، أي تحولوا بعد ضيق المكان إلى ضيق النفس، ما يعني مرور فترة من الزمن عبر النص عنها بأداة التراخي (ثُمَّ).

وفي هذه الآية والآية السابقة لها إشارات نصية جميعها يؤدي إلى مادة الظن ومنها:

(1) روح المعاني: المجلد الخامس عشر 98/29 .
(2) نظم الدرر: 480/29.
(3) الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي: 48/20، منشورات مؤسسة الأعلى للمطبوعات، بيروت، ط1، 1997 .

خُلِّفُوا "فسر كعب بن مالك في حديثه المروي في الصحيح فقال: وليس الذي ذكر الله مما خلفنا عن الغزو وإنما تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه"(1)، وهذه الكلمة بصيغتها (خلفوا) تدفع بالنص إلى إبراز ثنائية: الفعل ورد الفعل، العمل والجزاء، خلفوا فخلفوا.

مَلْجَأً، جعلوا الله مناط اللجوء على الترجيح فهو من حكم عليهم بالإبعاد والنفي وعدم القبول، ودفع بهم إلى النبذ حتى عافهم من حولهم مدة من الزمن عبر عنها النص ب(ثم)، وكيف يستجار بمن قضى بهذا الإبعاد، وقد بدا لهم أن لا أمل في النجاة من عقابه ؟

ثم لنوازن بين ألفاظ التوبة الصادرة في شأنهم وشأن غيرهم ممن تاب الله عليهم بداءة، أما من تاب عليهم ممن سبقهم فقال فيهم سبحانه: " ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم "، أما الذين خلفوا فقال سبحانه فيهم: " ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا" مما يمكن أن يؤدي إليه ذلك من أن الترجيح الذي وقع منهم وإن دفع إليه الضيق المكاني والنفسي، ومظاهر الإعراض من رسول الله ρ والمسلمين، وأن سواهم تاب الله عليهم دونهم .. إلا أنه مما يوقع في الإثم كونهم ظنوا دون أن يتيقنوا ومن ثم قال:" تَابَ لِيَتُوبُوا"، فجعل توبته عليهم سببًا لفتح باب توبتهم، وتحويلا لظنهم إلى اليقين .

(3) الكافرون

الآية من قوله تعالى: (وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا) [الكهف آية: 53]

في البحر المحيط: "وقيل: معنى(فَظَنُّوا) أيقنوا قاله أكثر الناس. ومعنى (مُوَاقِعُوهَا) مخالطوها واقعون فيها"(2)، قال الرازي: "وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا" وفي هذا الظن قولان: (الأول) أن الظن ههنا بمعنى العلم واليقين (والثاني) وهو الأقرب أن المعنى أن هؤلاء الكفاء يرون النار من مكان بعيد فيظنون أنهم مواقعوها في تلك الساعة من غير تأخير ومهلة".(3)

وفي المحرر الوجيز "قال القاضي أبو محمد رحمه لله: ولو قال تعالى بدل ظنوا: أيقنوا لكان الكلام متسقًا على مبالغة فيه، ولكن العبارة بالظن لا تجئ أبدًا في موضع يقين تام قد ناله الحس، بل أعظم درجاته أن يجئ في موضع علم متحقق لكنه لم يقع ذلك المظنون، وإلا فما يقع ويُحس لا يكاد يوجد في كلام العرب العبارة عنه بالظن".(4)

"وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ هي رؤية عين أي عاينوها. والظن هنا: قيل على موضوعه من كونه ترجيح أحد الجانبين، وكونهم لم يجزموا بدخولها رجاًء وطمعًا في رحمة الله".(5)

قال ابن عاشور "والظن مستعمل هنا في معنى التحقق وهو من استعمالاته. ولعل اختياره هنا ضرب من التهكم بهم، بأنهم رجحوا أن تلك النار أعدت لأجلهم في حين أنهم موقنون بذلك".(1)

(1) التحرير والتنوير: 52/11.
(2) البحر المحيط: 130/6.
(3) التفسير الكبير: 140/10.
(4) المحرر الوجيز: 1198.
(5) البحر المحيط: 130/6.

والأمر متعلق في إيراد مادة الظن بكونهم "مجرمين"، إذ إنهم وقد انقطعت بهم الأسباب وعاينوا مصيرهم بأعينهم وهو جزاء ما اقترفوا بما دل عليه وصفهم، حيث"ذكر المجرمين إظهار في مقام الإضمار للدلالة على ما يفيده المجرمون من تلبسهم بما استحقوا من عذاب النار"(2)، فغلبة ما أقاموا عليه في الدنيا جعلهم ينشدون فرارا عن النار وانصرافا، وهو ما دفع بالنفي (لَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا) أي "انصرافًا ومعدلًا ينصرفون إليه"(3)، فلولا غلبة إجرامهم على طباعهم ومنازعة نفوسهم لهم وما تمنيهم به من أن ثمة سبيل للفرار، ما أنتج النص قوله تعالى: " ولم يجدوا عنها مصرفا "، يقول البقاعي: "ولما قرر سبحانه ما لهم مع شركائهم، [ذكر حالهم] في استمرار جهلهم، فقال تعالى: (وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ) أي العريقون في الإجرام (النار) .أي ورأوا، ولكنه أظهر للدلالة على تعليق الحكم بالوصف (فظنوا) ظنا (أنهم مواقعوها ولم) أي والحال أنهم لم (يجدوا عنها مصرفا) أي مكانا ينصرفون إليه، فالموضع موضع التحقق، ولكن ظنهم جريا على عادتهم في الجهل .. مع قيام الأدلة التي لا ريب فيها "(4).

ثالثًا: اليقين

وردت مادة اليقين في الخطاب القرآني في ثمانية وعشرين موضعًا، ثلاث وعشرين منها للعهد المكي وخمس آيات للمدني، وقد وردت على صيغ متعددة، فوردت بصيغة المصدر، وصيغة استفعل، وصيغة مستفعل، وعلى صيغة المضارع، واسم الفاعل، وكانت وصفا للمؤمنين وإرشادا للضالين ...

ولمادة اليقين خصوصية في دورانها في النص القرآني إذ تأتي عقب سوق الدلائل والآيات وما أودع الله في الكون من علامات تماشيًا مع دلالة اليقين التي يتجاوز بها النص المسير من الشك، إلى الظن، ثم العلم، خلوصًا إلى اليقين .

تنصب الدراسة الأسلوبية لمادة اليقين على بيان الفروق الدلالية للصيغ، وما تؤدي إليه من تباين في المعاني في تعلقها بالسياق، من خلال تحليل واحدة من آيات مادة اليقين، كما تكشف عن خصوصية مواد الشك والظن واليقين من خلال دراسة إحدى آيات مادة اليقين التي ضمت المفردات الثلاث معا .

التشكلات الأسلوبية للصيغة: يعد الانتقال من صيغة صرفية إلى صيغة صرفية أخرى جمالية فذة، عبر عنها ابن الأثير بقوله :" اعلم أيها المتوشح لمعرفة علم البيان أن العدول عن صيغة من الألفاظ إلى صيغة أخرى لا يكون إلا لنوع خصوصية اقتضت ذلك، وهو لا يتوخاه في كلامه إلا العارف برموز الفصاحة والبلاغة التي اطلع على أسرارهما ،و فتش عن دفائنهما، ولا تجد ذلك في كل كلام ،فإنه من أشكل ضروب علم البيان وأدقها فهما، وأغمضها طريقا " (5).

ووفق ما سبق تستوقفنا الآية من سورة الرعد، قوله تعالى: (اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ) [آية: 2].

(1) التحرير والتنوير: 345/15.
(2) السابق: 345/15-346.
(3) تفسير أبي السعود: 229/5.
(4) نظم الدرر: 87/12 .
(5) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير: 14/2، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة البابي الحلبي 1939 .

"(يُدَبِّرُ الْأَمْرَ) " أي في المعاش والمعاد وما ينظمهما بأن يفعل فيه فعل من ينظر في أدباره وعواقبه ليأتي محكمًا يجل عن أن يرام بنقص. (يُفَصِّلُ الْآيَاتِ) التي برز إلى الوجود تدبيرها، الدالة على وحدانيته وكمال حكمته، المشتملة عليها مبدعاته، فيفرقها ويباين بينها مباينة لا لبس فيها ... ولما كان هذا التدبير وهذا التفصيل دالًا على تمام القدرة وغاية الحكمة، وكان البعث لفصل القضاء والحكم بالعدل وإظهار العظمة هو محط الحكمة، علل بقوله: (لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ) أي لتكون حالكم حال من يرجى له بما ينظر من دلالات الإيقان بلقاء الموجد له المحسن إليه بجميع ما يحتاجه .. (تُوقِنُونَ) أي تعلمون ذلك من غير شك استدلالًا بالقدرة على ابتداء الخلق على القدرة على ما جرت العادة بأنه أهون من الابتداء وهو الإعادة".(1)

وما يستلفت النظر في الآية كلمة " لِقَاءِ" التي صدرت بصيغة المصدر مع مادة اليقين، بينما صدرت بصيغة اسم الفاعل" ملاق "مع مادة الظن في مواضع ثلاثة من الخطاب القرآني .

لقاء: (لاقاه) ملاقاة ولقاء قابله وصادفه، (التقيا) استقبل كل منهما صاحبه، ويقال التقى الشيء لقيه تلاقيًا".(2)

وقد ورد اللقاء مع مادة اليقين بصيغة المصدر، والمصدر في اللغة "لفظ يدل على الأصل في كل شيء، مشتق من الجذر الثلاثي صدر، ومعناه موضع الصدور"(3)، وهو دال على حدث قرن بزمان مجهول، قال الزمخشري عنه إنه: "حدث وحدثان"(4)، فالمصدر معنى خال من الزمن ولذا سميت المصادر بالمعاني لأنها تمثل الأحداث دالة على معان مجردة، وقد عرض ابن مالك للمصدر بوصفه لفظًا ودلالة، فبين اسميته وأصالته، فقال: هو "الاسم الموضوع بأصالة، الدال على المعنى الصادر من المحدث به عنه أو القائم به أو الواقع عليه، والأفعال والصفات مشتقة منه".(5)

فما يعنى به النص هو "اللقاء" ذاته بكونه أي الحدث نفسه، مطلقا مجردا لدلالة البعث، والنشر، والحساب، وهو ركن مكين من أركان العقيدة، وللمصادر دلالات خاصة في سياقات التدبر والتعقل إذ يؤتى بالمصدر حاملًا دلالة الثبوت والمبالغة، التي استقاها من خلفيته الاسمية ودلالته على الحدث، فقالب المصدر هنا إثبات لحدث البعث، تتساوق دلالة الثبوت والتوكيد والمبالغة فيه مع حالتي الشك والإنكار، فيما عبر عنه النص بقوله تعالى: (لَعَلَّكُمْ)، فمقصود السياق (بلقاء ربكم) التركيز على أحداث الموت والبعث والحساب، وهذا المعنى مستفاد من مبنى الصيغة الصرفية "فِعال"، وكما يبدو أن صفات القوة والامتداد والهيمنة قد استحوذت حتى على البنية الصوتية لهذا المصدر .

أما اسم الفاعل فهو "اسم يدل على من صدر عنه الفعل بمعنى الحدوث، لا الثبوت، ويشتق منه المضارع المعلوم، ويعمل عمل فعله إذا كان بمعنى الحال أو الاستقبال"(6)، وقيل فيه إنه: "كل اسم

(1) السابق: 10/272-274.
(2) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية: 836/2، دار الدعوة، القاهرة .
(3) الجوهري، الصحاح،، ابن منظور، مادة (ص د ر).
(4) المفصل في علم العربية، الزمخشري :31، دار الجيل، ط2، بيروت.
(5) تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد، جمال الدين محمد بن عبد الله: 87، تحقيق محمد كامل بركات، دار الكتاب العربي، مصر.
(6) الهداية في النحو، علي بن نايف الشحود: 105، المجمع العلمي الإسلامي، دار منير، ط5، العراق.

اشتق من مصدره وصيغ على وزن من قام بالفعل"(1) فهو لصيغة تدل على الحدث والحدوث وفاعله، جارية مجرى الفعل في اللفظ والمعنى. وذلك أن اسم الفاعل يجري على مضارعه في حركاته وسكناته، ويدل على الحدث، أي القيام بهذا الحدث، ويظهر في بنيته جنس الذات وعددها .

ويأتي اسم الفاعل دالًا على الحدوث وقد يفيد الثبوت، فالحدوث فيه أمر نسبي لا يتأتى من البناء وحده دون السياق، ويرى بعضهم فيه دلالة طارئة على الثبوت، وأن دلالته على الثبوت تتحصل باستعماله وحده غير متصل. ويمكن القول إن دلالة اسم الفاعل على الحدوث هي الغالبة المشهورة، فقد يأتي متضمنا مفهوم الثبوت".(2)

في اقتران اللقاء باليقين تم اختيار الشكل اللغوي (لقاء) بدلالة المصدر على الرسوخ والثبات، فاللقاء في اقترانه باليقين نزعت زمنيته وجرد الحدث فهو قائم ثابت مؤكد الوقوع، أما في صيغة "ملاق" فاسم الفاعل يدل من خلالها على حدث الملاقاة، وعلى أصحاب الحدث، وعلى ثباته، حيث عدل عن استعمال الفعل (يلاقي) إلى اسم الفاعل "ملاق" لإثبات الوصف، وجعله مؤكدًا، على أنه وجه بالصيغة، إلى ما في اسم الفاعل من عمليات التجدد التي تلاحق بها الأحداث التي دفع بها إلى السياق، أي أن أمر ترجيح الملاقاة متجدد مع كل عملية اختيار، وهو ما يمكن أن يدرك في امتداد صيغة اسم الفاعل في موقعي سورة البقرة: " الخاشعين " ،"راجعون"، "الصابرين "، فهاهنا عمليات ترجيح مستمرة للقاء الله والرجوع إليه، ملاحقة لدلالة الحدوث التي يحتويها قالب اسم الفاعل، ينقلها الخطاب القرآني في القالب الذي يتفق مع فاعلية اللقاء وما يخلفه من تأثير، بينما مع مادة اليقين يستحضر النص صيغة المصدر (لقاء)، بما يضمن من دلالة الثبوت .

فحيثما تمتلك اللغة في الخطاب القرآني دورًا من خلال سمت خاص تتسم به، يغدو لكل صيغة سماتها الشكلية والمعنوية التي تتحرك بها في السياق، ومن ثم غلب استعمال المصدر (لقاء) في النص القرآني بما استحوذ عليه من دلالة الحدث الثابت المؤكد لمعنى البعث والحساب، وهو من ركائز الإيمان وأركان العقيدة، (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا) [الأنعام: 130]، (إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ...) [يونس: 7]، (قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ) [يونس: 45].

بينما رصدت صيغة اسم الفاعل "ملاق" أطراف الحدث، وحركيته، وتطوره، وما يعقبه من أحداث في شتى مواقعه من نصوص القرآن، "نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) [البقرة: 223]، (وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ) [هود: 29]، (قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ) [الجمعة: 8]، (يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ) [الانشقاق: 6]، وعليه فالمعنى يحدد الشكل اللغوي القادر على حمل رسالة النص، حيث تقف المفردات بصيغها فاصلا بين الدلالات.

(1) نزهة الطرف شرح بناء الأفعال في علم الصرف، صادق بن محمد البيضاني: 78/1، ط 1421.
(2) المشتقات الدلالية على الفاعلية والمفعولية، سيف الدين طه الفقراء: 110، علم الكتب الحديثة، إربد، الأردن، 2005.

ثلاثية: الشك /الظن/ اليقين: الآية من سورة النساء من قوله تعالى: " (وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا) [النساء: 157]، تبدو مشتملة المواد الثلاثة: شك/ ظن/ يقين، متجاورة في السياق، بينها مادة (علم)، لتفصح بجلاء عن خصوصية أداء كل لفظ في دورانه في النص القرآني.

و ثمة صدام يقع بين لفظي: شك وظن مرده قوله تعالى: (وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ)، إذ كيف يشكون ويظنون في آن واحد؟، ومن ثم اختلف العلماء في توجيه مادة الظن إذ تأسس النص على الشك في الاختلاف فكيف تحول عن الشك إلى الظن؟، فقال إنهم يتبعون الظن ولم يقل الشك .

يقول الشوكاني: "لا يقال إن اتباع الظن ينافي الشك الذي أخبر الله عنهم بأنهم فيه. لأن المراد هنا بالشك: التردد كما قدمنا، والظن نوع منه، وليس المراد به هنا ترجح أحد الجانبين"(1)، ويقول أبو السعود: "(لَفِي شَكٍّ مِنْهُ) لفي تردد والشك كما يطلق على ما لم يترجح أحد طرفيه يطلق على مطلق التردد وعلى ما يقابل العلم"(2)، وفي تفسير الطبري: "(لَفِي شَكٍّ مِنْهُ) يعني من قتله، .. فشكوا من الذي قتلوه: هل هو عيسى أم لا؟ .. يعني: أنهم قتلوا من قتلوه على شك فيه واختلاف .. من غير أن يكون لهم بمن قتلوه علم، من هو؟ هل هو عيسى أم غيره؟ (إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ) .. ما كان لهم بمن قتلوه علم، ولكنهم اتبعوا ظنهم فقتلوه".(3)

يقول الزمخشري: "فإن قلت لم وصفوا بالشك، والشك أن لا يترجح أحد الجائزين، ثم وصفوا بالظن، والظن أن يترجح أحدهما، فكيف يكونون شاكين ظانين؟ قلت: أريد أنهم شاكون ما لهم من علم قط، ولكن لاحت لهم أمارة فظنوا"(4)، وفي البحر المحيط: "أن العرب تطلق الشك على ما لم يقع فيه القطع واليقين، فيدخل فيه كل ما يتردد فيه، إما على السواء بلا ترجيح، أو بترجيح أحد الطرفين"(5).

وعلى هذا النحو أقحم الظن في دائرة الشك، ووجه الشك والظن إلى المقتول لا إلى قتله، عليه السلام، وأن الظن وقع بعد أن لاحت لهم أمارة، فيما علل صاحب البحر المحيط بأن الآية حملت الشك والظن على ما لم يقع فيه اليقين جريا على مألوف كلام العرب، دون النظر لأمر الترجيح .

والأمر أنهم في اختلافهم شاكون، أي لا يترجح لديهم أقُتل عيسى أم لم يُقتل؟، وقع تعليل ذلك بقوله: (مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ)، والعلم قاعدة اليقين ومصدره ومن ثم نفى ذلك عنهم فهم "في تردد لا يخرج إلى حيز الصحة، ولا إلى حيز البطلان في اعتقادهم بل هم مترددون مرتابون في شكهم يعمهون، وفي جهلهم يتحيرون".(6)

(1) فتح القدير: 341/6.
(2) تفسير أبي السعود: 251/2.
(3) تفسير الطبري: 604/2-605.
(4) الكشاف: 270/6.
(5) البحر المحيط: 406/3
(6) فتح القدير: 341/6.

فإذا كانوا في اختلافهم يشكون، فثمة تساؤل ضمني يطرحه النص - وقد وقع بالفعل اتباعهم لمبدأ كونه قتل ρ- .. فكيف إذن وقع ذلك ؟ وهنا طرحت مادة الظن في السياق، ومصدر الظن مادة "الاتباع" التي تقتضي أمر الترجيح إذ لا يقع الاتباع (1) لأمر ما أيًا ما كان هذا الأمر إلا بالتغليب .

بيد أن النص حين يطرح حالهم ويصفهم بأنهم يشكون يدفع بمادة الظن التي تعني الترجيح إلى دائرة معينة، فيرصد ضعف هذا الترجيح وتهافته، وعدم تأسيسه على اليقين، فالظن هنا قاعدته الشك ومآله الشك وهو ما ظهر في السياق بالنفي (وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا) إذ لم يكتف السياق بالنفي (وَمَا قَتَلُوهُ) إنما كشف مرة أخرى عن قيمة الشك وتم فرضها بجلاء ليغدو الترجيح بالظن مصدره الشك ومآله إليه "(وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا) أي قتلًا يقينيًا .. إذ اليقين العلم الجازم الذي لا يحتمل الشك"(2)، (مَا لَهُمْ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ) أي ما لهم بقتله علم حقيقي ولكنهم يتبعون فيه الظن الذي تخيلوه (وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا) أي وما قتلوه متيقنين أنه هو بل شاكين متوهمين"(3)، "لأن مضمون (وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا) بعد قوله: (وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ) - إلى قوله (وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ) يدل على أن انتفاء قتلهم إياه أمر متيقن، فيصح أن يكون يقينًا مؤكدًا لهذا المضمون. ويصح أن يكون في موضع الحال من الواو في (قَتَلُوهُ) أي ما قتلوه متيقنين قتله، ويكون النفي منصبًا على القيد والمقيد معًا، بقرينة قوله قبله (وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ) أي هم في زعمهم قتله ليسوا بموقنين بذلك الاضطراب الذي حصل في شخصه "(4) .

ومن ثم فالظن المقصود هنا هو الميل إلى أحد معتقدين متخالفين دون أن يكون هناك حجة أو برهان، ذلك الظن الذي ينطلق من قاعدة الشك وإليها يؤوب .

الخاتمة

عبر دراسة أسلوبية لمواد: **«الشك والظن واليقين»** في النص القرآني أمكن الوصول إلى عدد من النتائج ومنها:

1- أن المواد الثلاثة صدرت عن النص القرآني بدلالات متغايرة، تنفي لون تراسل فيما بينها، وإنما استعمل كل منها في النص القرآني وفق دلالته اللغوية، وعلى أصل ما وضع له، موافقا لما يطرح من المعاني في السياق.
2- أن الترادف التام، والذي يعني إمكانية إبدال لفظ مكان آخر مرادفًا له غير قائم في النص القرآني.
3- أن مادة الظن في الخطاب القرآني – على جهة الخصوص – قد طالها الكثير من الخلط والاضطراب في توجيه مقصودها والإفصاح عن دلالتها في السياق بحيث ألحقت بها جملة من الدلالات أبعدتها عن مادتها اللغوية وما يفرزه السياق من جملة الدلالات.

(1) وفي المقاييس: اتباع: التلو والقفو، وفي المصباح تبع زيد عمروا: مشى خلفه، فالاتباع "هو القفو والحركة خلف شيء مادي أو معنوي .. والاتباع هو القفو بالاختيار والإرادة" التحقيق: 1/407-409.
(2) تفسير أبي السعود: 2/252.
(3) صفوة التفاسير: 1/317.
(4) التحرير والتنوير: 6/23.

4- أن مادة الظن في الخطاب القرآني اختصت بالطارئ والعارض من المواقف والأحداث، لمعنى الترجيح والاختيار، حيثما استدعى السياق هذا المعنى، ومن ثم لم تقتصر كمادة الشك على سياقات الكفر، ولا شاعت في سياقات الإيمان كمادة اليقين .
5- أن مادة الظن طرحت في النص القرآني بدرجة عالية من الدقة، حين ظهرت في سياقات الإعراض والتولي، وسياقات الإيمان الراسخ، وسياقات الحكاية عن الأنبياء.
6- يمكن تصحيح قراءة مادة الظن في النص القرآني من خلال السياق الأسلوبي بما يحقق كونها تتحرك من قاعدة اليقين أو الشك أي أنها تنطلق من رحمهما حسبما تعكس المفردات في السياق، حيث انطلقت مادة الظن من قاعدة اليقين لتشير إلى عمليات ترجيح وقعت في أعلى سلم الترجيح، ومن قاعدة الشك لتدل على تلك التي وقعت في أدناه .
7- وفق ما سبق فليس الظن أدخل في باب العقيدة وإنما هو قياس لدرجة ثباتها كونه منوطا بعمليات الاختيار والترجيح لدى المواقف .
8- يدحض هذا التوجيه لمادة الظن في الخطاب القرآني ما تعارف عليه بعضهم من أن كل ظن في الخطاب القرآني يقين، أو أن ظن المؤمن فيه يقين وظن الكافر شك، أو أن ظن الآخرة يقين وظن الدنيا شك، إنما ظن المؤمن قاعدته اليقين، إذ هو مناط الترجيح ومنطلقه، بينما الشك قاعدة ظن الكافر، ومناط الترجيح لديه .
9- وفق ما سبق يمكن القول أن الخطاب القرآني يخلو من الأضداد، كما يخلو من الترادف، فكل كلمة فيه، بل كل حرف محمل بجملة من الدلالات يستعصي بل يمتنع وجودها في سواه .

ملحق الآيات

(مادة الشك)

- وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ (١٥٧ النساء)
- كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ (٩٤ يونس)
- إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ (١٠٤ يونس)
- وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٦٢ هود)
- وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (١١٠ هود)
- وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩ ابراهيم)
- قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (١٠ ابراهيم)
- بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ (٦٦ النمل)
- إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ (٢١ سبإ)
- إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ (٥٤ سبإ)
- أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي (٨ ص)
- فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ (٣٤ غافر)
- وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (٤٥ فصلت)
- وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (١٤ الشورى)

- بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ (٩ الدخان)

(مادة الظن)
آيات ورد فيها «الظن»

- مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧ النساء)
- إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (١١٦ الأنعام)
- إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (١٤٨ الأنعام)
- وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (٣٦ يونس)
- إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٦٦ يونس)
- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ (١٢ الحجرات)
- إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ (١٢ الحجرات)
- إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ (٢٣ النجم)
- وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ (٢٨ النجم)
- وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (٢٨ النجم)
- الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (٤٦ البقرة)
- لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٧٨ البقرة)
- فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ (٢٣٠ البقرة)
- قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ (٢٤٩ البقرة)
- يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ (١٥٤ آل عمران)
- يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ (١٥٤ آل عمران)
- إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦ الأعراف)
- وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ (١٧١ الأعراف)
- وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ (١١٨ التوبة)
- وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ (٢٢ يونس)
- وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا (٢٤ يونس)
- وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا (٣٦ يونس)
- وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ (٦٠ يونس)
- وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧ هود)
- وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ (٤٢ يوسف)
- وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا (110 يوسف)
- وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا (52 الإسراء)
- فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا (101 الإسراء)
- وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا (102 الإسراء)
- قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا (35 الكهف)
- وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (36 الكهف)
- وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا (53 الكهف)
- وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ (87 الأنبياء)

- مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ (15 الحج)
- لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا (12 النور)
- وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (186 الشعراء)
- لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (38 القصص)
- وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (39 القصص)
- وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (10 الأحزاب)
- وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (10 الأحزاب)
- وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ (20 سبإ)
- فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (87 الصافات)
- وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (24 ص)
- ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (27 ص)
- فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا (37 غافر)
- وَلَٰكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ (22 فصلت)
- وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ (23 فصلت)
- وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ (23 فصلت)
- وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (48 فصلت)
- وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ (50 فصلت)
- وَمَا لَهُمْ بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (24 الجاثية)
- إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (32 الجاثية)
- قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا (32 الجاثية)
- الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ (6 الفتح)
- الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ (6 الفتح)
- بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا (12 الفتح)
- وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا (12 الفتح)
- وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا (12 الفتح)
- مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ (2 الحشر)
- مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ (2 الحشر)
- إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (20 الحاقة)
- وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (5 الجن)
- وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا (7 الجن)
- وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا (7 الجن)
- وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا (12 الجن)
- تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (25 القيامة)
- وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (28 القيامة)
- أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (4 المطففين)
- إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ (14 الإنشقاق)

(مادة اليقين)

- أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢ النمل)
- وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤ البقرة)
- تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (١١٨ البقرة)
- مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧ النساء)
- وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٥٠ المائدة)
- وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥ الأنعام)
- يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢ الرعد)
- وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (٩٩ الحجر)
- قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٢٤ الشعراء)
- وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٣ النمل)
- وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا (١٤ النمل)
- أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ (٨٢ النمل)
- فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ (٦٠ الروم)
- الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤ لقمان)
- رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢ السجدة)
- وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤ السجدة)
- رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٧ الدخان)
- وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤ الجاثية)
- هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٢٠ الجاثية)
- إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (٣٢ الجاثية)
- وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (٢٠ الذاريات)
- أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ (٣٦ الطور)
- إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥ الواقعة)
- وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (٥١ الحاقة)
- لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ (٣١ المدثر)
- حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ (47 المدثر)
- كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (5 التكاثر)
- ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (7 التكاثر)

المصادر والمراجع

1. أحكام القرآن، أبو بكر بن العربي المالكي، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي، مصر، 1959.
2. إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، دار ابن حزم ط1، 2005/1426.

3. الأسلوبية وطرق قراءة النص، عمر عبد الله العنبر، ومحمد حسن عواد، بحث منشور في مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، كلية الآداب، الجامعة الأردنية، مجلد :41، عدد:2، 2014.
4. أسماء الله الحسنى، دراسة في البنية والدلالة، أحمد مختار عمر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2000.
5. الاشتراك اللفظي في القرآن الكريم، محمد نور الدين المنجد، ط1، دار الفكر بدمشق، 1999.
6. الأصول في النحو، أبو بكر محمد بن سهل بن السراج، تحقيق د. عبد الله الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة.
7. أفعال الحركة الانتقالية الكلية للإنسان في القرآن الكريم، عماد عبدالرحمن خليل شلبي، رسالة ماجستير/ جامعة النجاح الوطنية/نابلس/فلسطين، 2010.
8. الألفاظ المترادفة المتقاربة المعنى، أبو الحسن علي بن عيسى الرماني، تحقيق ودراسة: فتح الله صالح علي المصري، المنصورة، مصر، ط2، دار الوفاء، 1988.
9. البرهان في علوم القرآن، محمد بن عبد الله الزركشي، دار الفكر، بيروت، ط1 ،1988.
10. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، تحقيق عبد العليم الطحاوي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1393- 1973 .
11. بلاغة الكلمة، فاضل السامرائي، دار عمار، عمان، ط4، 2007/1428.
12. بناء لغة الشعر، جون كوين، ترجمة وتعليق وتقديم أحمد درويش، مكتبة الزهراء، القاهرة، 1985.
13. تاج العروس من جواهر القاموس، محمد بن محمد عبد الرازق المرتضى الزبيدي، دار البيان، بنغازي، 1306 .
14. التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، 1984.
15. التحقيق في كلمات القرآن الكريم، حسن المصطفوي، مركز نشر آثار المصطفوي، طهرن، إيران، ط1، 1385 .
16. التركيب الشرطي (إذا) الدال على الثنائية التقابلية لسلوك المنافق، نوزاد حسن خوشنار، بحث منشور في كلية الآداب، جامعة صلاح الدين، أربيل، عدد :95 .
17. تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد، جمال الدين محمد بن عبد الله، تحقيق محمد كامل بركات، دار الكتاب العربي، مصر.
18. التعريفات، علي بن محمد بن علي الشريف الجرجاني،تحقيق إبراهيم الإبياري، دار الكتاب العرب، بيروت، ط1، 1405.
19. تفسير ابن عرفة، محمد بن عرفة التنوسي المالكي، تحقيق حسن المناعي، مركز البحوث بكلية الزيتونة، تونس، ط1، 1986.
20. تفسير أبي السعود، محمد بن محمد العمادي أبو السعود: 24/1، ط1، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1411/ 1990.
21. تفسير البحر المحيط، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية بيروت، 1993/1413 .
22. تفسير البيضاوي المسمى أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين أبي سعيد عبد الله الشيرازي البيضاوي، تحقيق محمد صبحي بن حسن حلاق ومحمود أحمد الأطرش، دار الرشيد، دمشق، بيروت، ط1، 2000/1421 .

23. تفسير الراغب، الراغب الأصفهاني، تحقيق محمد عبدالعزيز بسيوني، كلية الآداب، جامعة طنطا، ط1، 1420 /1999.
24. تفسير السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق عبدالرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط1، 2000.
25. تفسير الطبري (جامع البيان)، محمد بن جرير الطبري، دار الفكر، بيروت، 1988/1408 .
26. تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، محمد الرازي فخر الدين، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1981 .
27. تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار الكتاب العربي، 1952/1372.
28. التفسير القيم، ابن القيم، تحقيق محمد حامد الفقي، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
29. تفسير الكشاف، عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزَمي، دار المعرفة، بيروت، ط3، 1430/ 2009 .
30. التقابل الجمالي في النص القرآني (دراسة فكرية وأسلوبية)، حسين جمعة، منشورات دار النمير، دمشق، ط1 ،2005 .
31. التواضع في ضوء القرآن والسنة الصحيحة، سليم بن عيد الهلالي، دار ابن القيم للتوزيع والنشر، الدمام، ط1، 1410.
32. جدلية السياق والدلالة ،سيروان عبد الزهرة الجنابي، وحيدر جبار عيدان، مركز دراسات الكوفة، الكوفة، 2008 .
33. جماليات الأسلوب والتلقي، موسى ربابعة، دار جرير ،عمان، الأردن ،ط1 ،2008 .
34. جمالية الأسلوب الخطابي في شعر أحمد مطر، حورية حسني، مذكرة تخرج في اللغة والأدب العربي، جامعة البويرة .
35. جماليات المفردة القرآنية، أحمد ياسوف، دار المكتبي، دمشق، ط2، 1999/1419.
36. الجمهرة، جمهرة اللغة، ابن دريد، ط حيدر آباد، 1344.
37. الحجاج في الشعر العربي (بنيته وأساليبه)، سامية الدريدي، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، 2011.
38. الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، عبد الله صولة، دار الفارابي، بيروت، ط2، 2007.
39. خصائص الحروف العربية ومعانيها، حسن عباس: منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1998.
40. الخطاب القرآني، دراسة في العلاقة بين النص والسياق، خلود العموش ،عالم الكتب الحديثة، إربد، 2004 .
41. الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية (قراءة نقدية لنموذج إنسان معاصر)، عبد الله محمد الغذامي، منشورات النادي الأدبي الثقافي، السعودية، 1985 .
42. دقائق الفروق اللغوية في البيان القرآني، محمد ياسر خضر الدوري، دار الكتب العلمية، بيروت، 1971.
43. دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة، سعيد حسن بحيري، مكتبة الآداب، القاهرة، 2005 .
44. دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، دار المدني، مصر، ط 3 ،2001.

45. الدلالة الإعجازية في رحاب سورة يوسف عليه السلام: عمر محمد عمر باحاذق، دار المأمون للتراث، بيروت، 1997/1417.
46. دور الرتبة في الظاهرة النحوية، المنزلة والموقع، عزام شريدة، دار الفرقان، عمان، ط1، 2004.
47. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، أبو الفضل شهاب الدين الألوسي البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1994/1415 .
48. شرح الرضي على الكافية، محمد بن الحسن الرضي، تعليق: يوسف حسن عمر، ط2، بنغازي/ جامعة قار يونس، 1996.
49. شرح كتاب سيبيويه، الحسن بن عبد الله المرزباني السيرافي أبو سعيد، تحقيق أحمد حسن مهدلي ،و علي سيد علي ،دار الكتب العلمية، بيروت، 2008/1429 .
50. الشكل والدلالة، دراسة نحوية للفظ والمعنى، السيد حامد عبدالسلام، دار غريب، القاهرة.
51. الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، أبو الحسن أحمد بن فارس، تحقيق عمر فاروق الطباع، ط1، بيروت، مكتبة المعارف، 1414/ 1993.
52. الصافي في تفسير كلام الله، المولى محسن الفيض الكاشاني، دار المرتضى للنشر والطباعة، مشهد ،ط1، د ت .
53. صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت، ط4، 1981/1402.
54. العذب المنير من مجالس الشنقيطي في التفسير، محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، تحقيق خالد عثمان السبت، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع ،مكة المكرمة، 1426 .
55. علم الدلالة العربي - النظرية والتطبيق -، فايز الداية، دار الفكر، دمشق، ط1 ،1405/1985 .
56. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، دار المعرفة، بيروت، ط4، 2007/1428 .
57. فرائد اللغة، الأب هنريكوس لامتس اليسوعي، بيروت، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، 1889م.
58. الفروق في اللغة، أبو هلال العسكري: تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الحديثة، ط4، 1980/1400 .
59. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، ط32 ،2003.
60. قاموس القرآن أو إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، الحسين بن محمد الدامغاني، حققه ورتبه وأمله وأصلحه عبد العزيز سيد الأهل، بيروت، ط1، 1427- 2007 .
61. قاموس المترادفات والمتجانسات، الأب رفائيل نخلة اليسوعي، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، 1957.
62. القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، عبدالكريم الخطيب، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ط2، 1975/1395 .
63. قضايا نحوية بين الافتراضات النحوية والواقع اللغوي، أيوب جرجيس العطية، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 2013.
64. الكتاب، سيبويه، تحقيق عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1982.
65. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الزمخشري، دار الفكر، بيروت، ط 1 ،1983 .

66. الكليات، أبو البقاء الكفوي، تحقيق عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، ط2، 1413 /1993.
67. اللباب في علل البناء والإعراب، أبو البقاء العكبري، تحقيق محمد عثمان، نشر مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1 ،2009/1430 .
68. لسان العرب، أبن منظور، محمد بن مكرم بن منظور، تحقيق عبدالله علي الكبير، ومحمد أحمد حسب الله، وهاشم محمد الشاذلي، طبعة دار المعارف .
69. اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 1998 .
70. لغة التضاد في شعر أمل دنقل، عاصم محمد أمين بني عامر، دار صفاء، عمان، الأردن، ط1، 2005.
71. اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط2 ،1979 .
72. اللغة والإبداع مباديء علم الأسلوب، شكري محمد عياد ،ط1 ،1988.
73. مبادىء اللغة، الخطيب الإسكافي، مطبعة السعادة، مصر، ط1، 1325.
74. مجموع الفتاوى، أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية بن عبد السلام بن تيمية، نشر وزارة الشؤون الإسلامية، الدعوة والإرشاد، السعودية، 2004/1425.
75. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي، دار ابن حزم، طبعة جديدة منقحة ومرتبة .
76. المحكم والمحيط الأعظم، أبو الحسن على بن إسماعيل بن سيده المرسى، تحقيق د. عبدالحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2000.
77. المسافة بين النظرية والتطبيق، خليل أحمد عمايرة، وائل للنشر، عمان، 2004 .
78. المشتقات الدلالية على الفاعلية والمفعولية، سيف الدين طه الفقراء، علم الكتب الحديثة، إربد، الأردن، 2005.
79. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي، مكتبة لبنان ،87.
80. معجم العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق عبدالحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2003/1424.
81. معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم، محمد محمد داود، دار غريب، القاهرة، 2008.
82. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية،دار الدعوة، القاهرة .
83. معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق وضبط عبدالسلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
84. مفتاح العلوم، أبو يعقوب السكاكي، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1987.
85. المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 2008.
86. المفصل في علم العربية، الزمخشري، دار الجيل، ط2، بيروت .
87. المقتضب، أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة ،طبعة الأوقاف المصرية، 1994/1415 .

88. الممتع في التصريف، ابن عصفور الإشبيلي، تحقيق فخر الدين قباوة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط4، 1979.
89. منهج البحث التاريخي بين التراث وعلم اللغة الحديث، علي زوين، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 1886.
90. الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي، منشورات مؤسسة الأعلى للمطبوعات، بيروت، ط1، 1997 .
91. نحو النص، اتجاه جديد في الدرس النحوي، أحمد عفيفي، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 2001.
92. نحو نظرية أسلوبية لسانية، ساندرس فيلي، دار الفكر، دمشق، ط1 ،2003 .
93. نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، ابن الجوزي، مؤسسة الرسالة، بيروت، تحقيق محمد عبد الكريم قاسم الراضي، ط3، 1987/1407.
94. نزهة الطرف شرح بناء الأفعال في علم الصرف، صادق بن محمد البيضاني، ط1، 1421.
95. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.
96. النكت والعيون، أبو الحسن علي بن محمد الماوردي، تحقيق السيد بن عبدالمقصود بن عبدالرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت.
97. النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين أبو السعادات بن الأثير، تحقيق: طاهر الزاوي، ومحمود الطناحي، نشر دار الباز، مكة المكرمة..
98. الهداية في النحو، علي بن نايف الشحود، المجمع العلمي الإسلامي، دار المنير، ط5، العراق .

المراجع الأجنبية:

1. Dictionary of modern English, Flowler, H, W: 295, Usage, Oxford, 1926.
2. Language and symbolic system, Blumenthal, A, S: 68, New York, 1972

Doubt, suspicion and certainty in the Noble Qur'an "A Stylistic Study"

D. Sahar Fathy Mohamed Hegazy
Department of Arabic Language, Faculty of Arts
Helwan university, Egypt.
saharhegazy91@gmail.com

Abstract:

The article (conjecture) in the Qur'anic speech still obstructs thought, insists on the mind, and requires reconsideration of its evidence in the Qur'anic context, as there are sensitive issues attached to it that cannot be explored, and their mysteries are resolved only by an accurate understanding of the text, and a discovery of the relationships that link between Its parts, and what this understanding issues from documenting the communication links between the texts and their recipients.

As linguistic units rise from the text, liberated from the values of the lexicon and the stability of meaning, except by the original extent and the significance embedded in its linguistic material, so it opens up to the text, releasing its semantic potential, and revealing the mysteries of its messages.

Since the Arabic lexicon is one of the constants of the researcher's tools and the starting point for study and analysis, many scholars and commentators have read what the dictionaries have deposited in their middles regarding the subject (conjecture), Ibn Faris said: "Al-Za' and Al-Noun are authentic, indicating two different meanings." And in Lisan Al-Arab: "(Think) the hermetic: conjecture is doubt and certainty,(1) except that it is not certainty, but it is the certainty of contemplation. As for the certainty of the bystander, only knowledge is valid in it. (2)

Lisan Al Arab, Ibn Manzur, Muhammad Bin Makram Bin Manzour: 2762, Dar Al Maaref Edition, verified by Abdullah Ali Al Kabeer, Muhammad Ahmad Hassab Allah, Hashem Muhammad Al Shazly.

(1) Dictionary of modern English, Flowler, H, W: 295, Usage, Oxford, 1926.

(2) Language and symbolic system, Blumenthal, A, S: 68, New York, 1972

Dictionary of language standards, Abu Al-Hussein Ahmed bin Faris bin Zakaria, verified and controlled by Abdul Salam Muhammad Haroun: 3/462, Dar Al-Fikr for printing, publishing and distribution

This close connection between the materials: doubt, suspicion and certainty has become the starting point of the study that seeks to clarify the distinctive significance of each of them and upon which the Qur'anic text is based, as reason, logic, visual and audio taste. refuse to create a reciprocal relationship between words, each of which has its own meaning and what interferes with it in its space. The semantic of what is close to the words, and the corresponding ones.

What distinguishes the Qur'anic speech on several levels, such as the phonemic, rhythmic, morphological, syntactic, rhetorical, semantic, and the level of use and rotation, proved the impossibility of replacing a word to another, and leads to the negation of the link between these three signs: doubt, suspicion and certainty, which make them Sometimes a single sign

And since the basis of the study is language in context, in search of second meanings, and a reading of the ambiguities of semantics, stylistics were taken as a way to research the expressive capabilities of linguistic phenomena, as a statement of the characteristics of the language according to which the news speech turns into its impactful function, through the study of the associative relationships between the signifiers, and what they produce. Signs that deny the totality of synonyms or antonyms, as well as taking care of the accompanying rhetorical meanings, and phenomena such as text binaries, repetition, singular and plural, definition and masculinity, and so on. Considering stylistics as one of the branches of modern linguistics, it is concerned with studying methods or linguistic choices, to highlight the effectiveness of the stylistic approach in studying the Qur'anic speech, as the study starts from a set of judgments and interpretations issued about the text, then re-analyzes it stylistically.

Keywords: stylistics, doubt, suspicion, certainty, the Noble Qur'an**.**